● ما كنت أعرف شيئا في الإنشاد، و ما كان الإنشاد يعني أيّ شيء لي، كنت في العشرينيات من عمري؛ أحلم بالمال و بالشهرة و بعشيقة شقراء، و حين يناديك الرب أن تعمل من أجله شيئا ؛ فإنك ببركته العظمى ستعمل أشياء و أشياء و أشياء، و سيتغير حلمك البسيط من مجرد أوهام أرضية؛ إلى ملكوت الرب الذي ناداك، و كلما حملت هموم الدعوة؛ أرسل الله إليك من يحمل همومك طوعا و قسرا، فسارت إليك الشهرة حثيثة الخطى كصاحبة الوجه الحسن.

فيفري 2015



شبكة سما العالمية

عبد الرزاق أنفو

التجربة القندسية 2

توصية و إشراف :
جهاز أنسام الصباح للتربية الفنية.

مراجعة و تدقيق :
جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشادية.

إلتقاط الصور :
أستوديو الأمل للتصوير (نور الدين بسام).

... هي الحكاية في مذكراتي الشخصية ... و لكن ليست كل الحكاية

العنوان : التجربة القندسية | الجزء 02.
كتابة و تصميم و تنسيق الصفحات : عبد الرزاق أنفو.
تاريخ : فيفري 2015.
توصية و إشراف : جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنية.
مراجعة و تدقيق : جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشادية.
إلتقاط الصور : نور الدين بسام (أستوديو الأمل).
رعاية إلكترونية : شبكة " سما " العالمية.

هذا الكتاب : ما كنت أعرف شيئا في الإنشاد، و ما كان الإنشاد يعني أيّ شيء لي، كنت في العشرينيّات من عمري؛ أحلم بالمال و بالشهرة و بعشيقة شقراء، و حين يناديك الرّبّ أن تعمل من أجله شيئا؛ فإنك ببركته العظمى ستعمل أشياء و أشياء و أشياء، و سيتغير حلمك البسيط من مجرد أوهام أرضيّة؛ إلى ملكوت الرّبّ الذي ناداك، و كلّما حملت هموم الدعوة؛ أرسل الله إليك من يحمل همومك طوعا و قسرا، فسارت إليك الشّهرة حثيثة الخطى كصاحبة الوجه الحسن.

إهداء

إلى كلّ من علّمني حرفا ...

إلى كلّ من علّمته حرفا

... تقدّس ربّ المعلّم و الأحرف.

فهرس الكتاب

مقدمة.......... 06

مقاربة الأحداث.......... 07

إذاعة " البليدة " ترحّب بنا !.......... 08

ضابط إنشاديّ برتبة " إستبرق ".......... 11

تلميذ الأستاذ " مأمون " و فاجعة وفاة الفنّان " عبد الرّحمن عزيز ".......... 13

إستغلال الفرقة الموسيقيّة و تشتّت الأعضاء.......... 16

مغامراتي في فنّ " الرّاي ".......... 18

حدث بعد صلاة الجمعة !.......... 21

تأسيس فرقة " أنسام الصّباح ".......... 22

الصّدمة.......... 24

مشاركة ذات حدّين.......... 27

شهادة ليسانس ... و الواقع المرّ.......... 29

تأسيس فرقة " الغيث " و دور الفنّان " يوسف حسن ".......... 32

تأسيس فرقة " الإيمان " و محاولة تكوين المشرفة " سميّة ".......... 36

" شبكة المجرّة الإخباريّة " و قضيّة " الصّادق الجزائريّ ".......... 41

برنامج " عفيف " و كواليس بناء " النظريّة الاحتوائيّة ".......... 42

تأسيس جريدة " أوميغا ".......... 43

قضيّة " ميس شلش ".......... 45

الاعتزال و العودة و جهود المنشد " عبد الكريم . م ".......... 46

المشاركة المشؤومة.......... 49

تصرّف غير مسؤول.......... 51

إتّخاذ عشيق.......... 53

التحضيرات الأوّليّة لألبومنا البكر.......... 55

نصائح " حسن النّيرب " و " غسّان أبي خضرة ".......... 57

الاتصالات الرّسميّة بالمهندس " فريد يماني ".......... 58

تفكير لم أفهم طبيعته !.......... 60

قرار إيقاف المشاركات و ضغوط جمعيّة " النّسيم ".......... 61

تربّص مغلق.......... 64

المسابقة الإنشاديّة الأولى 2014......67
إنتقالي إلى المسكن الجديد......69
مشكلتان في الأفق......74
الخطّة البديلة لتسجيل الألبوم......75
" الحوض الآمن "......79
التّكوين عن بعد......81
خاتمة......82
ملاحق......83

مقدّمة

حين كتبت الجزء الأوّل من هذه المذكّرات؛ أردت أن أضع الإنشاديّين بصورة خاصّة في صورة عامّة، و الجمهور العامّ في صورة خاصّة ... أردت أن أرسّخ فكرة تدوين تجاربنا كي يستفيد الآخرون منها، آثارنا نحن الإنشاديّون التي يجب أن يتعرّف عليها الناس، فأحيانا؛ نجد أنفسنا مضطرين إلى الكشف عن أشياء كنا نريد الاحتفاظ بها لأنفسنا، لا لشيء سوى لأنّها يجب أن تبقى لدينا، و أحيانا تتملّكنا الرّغبة العارمة في الدّفاع عن ممتلكاتنا الفكريّة، تلك الممتلكات التي تصبح إرثا إنسانيّا شيئا فشيئا رغما عن إرادتنا، لأنها أصبحت تمثل جزءا من التّجربة الإنسانيّة.

غير أنّ الواقع حين يتدخّل فيه آخرون يصبح شيئا مشبوها، يحتمل عدّة قراءات، يزوّد الرّغبة في الكشف عن معلومات أخرى للإيضاح، و هذه المعلومات هي في الأصل تساعد الآخرين على إطلاق أحكام صحيحة، كنت أنوي كتابة الجزء الثّاني لهذه التّجربة، إعتمادا على مسايرة الأحداث فقط لا أكثر من ذلك و لا أقلّ، أي ما سيحدث للنّادي عبر مشواره، و لكن كلّ ذلك لم يكن كافيا، لأنّ حجم المعلومات التي سأكشفها تبقى ناقصة مهما تعمّقت فيها شرحا أو تحليلا، تلكم كانت الفكرة العامّة التي حرّكتني، و مع نجاح الجزء 01 توكّلت على الله في أن أتوغّل عبر سنوات عمري الماضية ليتعرّف النّاس و الإنشاديّون على بعض المحطّات الهامّة التي كانت سببا مباشرا و غير مباشر في تغيير حياتي.

هي أحداث سيعرفها الجميع لأوّل مرة؛ بعدما كانت حكرا على دائرة مقرّبة جدّا من الزّملاء، و قد تصدم بعض الأطراف لما فيها من حقائق تُكشف لأوّل مرّة.

... هي الحكاية في مذكراتي الشّخصيّة ولكن ليست كلّ الحكاية.

عبد الرّزاق أنفو رئيس النّادي الإنشاديّ " قندس "

فيفري 2015

مقاربة الأحداث

عدنا جميعا إلى العمل بعد توقّف، بعد جهد جهيد و اتّصالات حثيثة هنا و هناك للمّ الشمل، و حين نعود؛ تعود معنا أحاسيسنا و ذكرياتنا، يعود كلّ شيء حتى آلام الماضي و نقاطه السّوداء.

غير أنّ الماضي الآن يبدو جميلا رغم ما حواه من مواجع، لأنّنا لمسنا تضحياتنا التي قدّمناها قرابيناً لملك مسلوب منّا، أراد الله بمشيئته تعالى أن يكون كلّ شيء من لا شيء.

نحن الآن في مارس 2014 نحضّر لاحتفالات يوم العلم 16 أفريل، و لا نعلم ما يمكن تقديمه سوى أنّنا يجب أن نكون في المستوى.

بدأنا في تدريباتنا العادية لاستعادة القوى، كنت أشتري لبناتي ما كنّ يشتهينه من كافيتيريا المركّب الرّياضيّ الجواريّ، قبل أن يتمّ غلقها بسبب بعض المشاكل، لم أكن أهتمّ بما أدفعه لصاحبها، سعادتهنّ البادية و ابتسامتهنّ المرسومة هي أحلى ما أحبّ دائما أن أراه، و ما ينفع اكتناز المال إذا كان يحرم الآخرين من سرور؛ هم أحوج ما يحتاجون إليه ؟.

ذات مرّة وجدت " فلّة " قائمة خلفيّة لصرصور على إحدى الفطائر المنزليّة، بدأ البائع في كلامه المعتاد الذي ينفي عنه أيّة مسؤوليّة، هناك من وجد فأرا في إحدى قارورات المياه الغازيّة، ليس في هذه الكافيتيريا على أيّة حال؛ لكن في الجزائر يمكن أن تجد كلّ شيء في كلّ شيء.

ما زلت أتذكّر شخصا وجد شفرة حلاقة في خبزة اشتراها من فرن في المدينة، كان هذا منذ 15 سنة، إنتشر الخبر بين الناس، و أصبحوا لا يقتنون حاجياتهم من هذا الفرن، آخر وجد فأرا في خبزة أيضا، هي حوادث معزولة؛ غير أنّ الحذر ضروريّ، فقد تأكل شيئا مقرفا في لقمة تلقمها في حالة جوع.

أمّا أنا فوجدت شيئا مختلفا تماما، كان ذلك قبل 25 سنة، أراد والدي أن يطبخ شيئا على عجل، وضع الماء يغلي مع مستلزمات القدر من ملح و زيت، ثمّ أراد أن يفتح علبة طماطم مصبّرة من الحجم الكبير، تصوّروا أنها كانت مملوءة عن آخرها بجبن من النّوعية الرّفيعة، ما يمثّل 05 أضعاف سعر علبة الطّماطم.

سعيد حظّه من يعيش في الجزائر، لأنه يمكن له أن يجد كلّ شيء في كلّ شيء.

المهمّ؛ وجود كافيتيريا في مركّب رياضيّ جواريّ مهمّ جدّا بغضّ النّظر عن بعض مشاكل النّظافة، نحن في منطقة هادئة بعيدة عن المقاهي و الدّكاكين، و لذلك فإنّ شراء أيّ شيء يستوجب قطع حوالي 100 متر في شكل متعرّج.

إذاعة " البليدة " ترحّب بنا !

ربما تكون مشكلتي أنّي أحاول إتقان كلّ شيء و لا أجد من يساعدني في ذلك، و قد تتملّكني رغبة السّيطرة على كلّ المتغيّرات لأتحكّم فيها، و أنا أعلم علم اليقين أنّي كلّما تحكّمت فيما حولي استتبّ الاستقرار.

نحن الآن في أسبوع الاستحقاقات الرّئاسيّة في انتظار يوم الانتخاب على رئيس جديد يقود البلاد، في الحقيقة كل شيء يقول أنّ العهدة الرّابعة شيء مؤكّد، لقد توقّفت أغلب الأنشطة الثقافيّة في الجزائر، الكلّ مشغول بهذا الموعد ممّا أدّى إلى تذبذب التّحضير لذكرى يوم العلم 16 أفريل، من المفروض أن تكون لنا مشاركات غير أنّ المناسبة عرقلت سيرنا قليلا، و لديّ فترة نشاط مع البنات قبل بدء الفروض و الاختبارات، فإذا لم نشارك هذه الأيّام لن نشارك إلاّ بعد انقضاء شهر ماي، و لهذا أثر قد لا يتحمّله إلاّ من كان ذا شكيمة.

إقترحت أن نشارك في برنامج " أزهار البليدة " لصاحبته المنشطة طاطا " منال "، إبتهجت البنات كثيرا؛ هي ثاني مشاركة لنا؛ و أوّل خرجة للفرقة التي تُعرف باسم فرقة " الوفاء " بعد التوقّف المشؤوم، غير أنّ هذا لا يمنع رفع جهوزيّتنا للمشاركات القادمة.

إتصلت بإذاعة " البليدة " عبر رقم الهاتف الرسميّ لها، حوالي 80 مرّة و لا أحد يجيب، فطلبت من مدير المركب الرّياضيّ الجواريّ " كمال . ج " التوسّط لنا في الأمر، كما طلبت نفس الشيء من صديقي " عبد الرؤوف "، كان يجب أن أتقدّم على عدّة مستويات و لا أقنع بجهة واحدة، من يدرِ ؟، ربما أنتظر و أنتظر و لا تأتي النّتيجة حسب رغبتي، كنت قلقا لدرجة كبيرة، دعوت الله أن يمنحنا توفيقه و رضاه، ليس من أجلي؛ فأنا شرّير، في داخلي يقبع وحش يوشك على الانفلات في أيّة لحظة، بل من أجل البنات اللّواتي صبرن للعمل.

حين يشاء الله فلا رادّ لمشيئته؛ إتصلت بإذاعة " البليدة " مجدّدا يوم الثلاثاء 15 أفريل بعد السّاعة 00 : 16 بعد قيلولة دامت أكثر من ساعة، لتجيبني منشّطة البرنامج طاطا " منال " مرحّبة بحضورنا يوم السّبت 19 أفريل 2014، هكذا بكلّ بساطة و دون بروتوكولات، من جهة أخرى كان التّنسيق واضحاً بيني و بين " هجيرة " المكلّفة بالتّأطير الثقافيّ في المركب الرياضيّ الجواريّ، لنضبط القائمة النهائيّة بأسرع وقت ممكن، رغم أنّها كانت في عطلة خاصّة؛ إلاّ أنّها فعلت كلّ ما في قدرتها على إتمام المهمّة الملقاة على عاتقها، طلبت من السيّد " أحمد . ب " إحضار آلة التّصوير الرّقميّة التي لديه، من أجل ضمان مادّة إعلاميّة بجودة عالية، بقيت الآن وسيلة النّقل التي ستكون حافلة البلديّة، غير أنّ طقس الانتخابات ما زال يميّز الوضع العامّ.

تكفّل " سفيان . م " بتوفير النّقل لنا مقابل التّصريح بمشاركتنا باسم الجمعيّة التي ينشط فيها؛ " عروس متيجة "، في حين رفضت جمعيّة " النسيم " التكفّل بتوفير طعام الغداء، كنت بين المطرقة و السّندان، مفهوم التنسيق بيننا تحوّل في غضون أقلّ من دقيقة إلى قضيّة انتماء، لم أشأ أن أضيّع العمل مع جمعيّة نشيطة؛ و في الآن نفسه كلّ أوراقنا تقول أنّنا

تابعون للمركب الرّياضيّ الجواريّ.

أخبرت البنات أن يكنّ متواجدات في نقطة الانطلاق على السّاعة 30 : 08 صباحا، نحن في غنى عن اللّباس الموحّد، فمشاركتنا صوتيّة فقط، و لا تتطلّب رسميّات أكثر ممّا هو مطلوب.

شاءت مشيئة المولى أن يكون السّائق منشدا من فرقة " الغيث " التي كنت أشرف عليها قبل زهاء 12 سنة، عند نقطة المراقبة تعرّف الحارس عليه و على " سفيان " فدخلنا دون أن نقول أيّ شيء، وصلنا 10 دقائق قبل بدء الحصّة، تعرّفت على مقدّمة البرنامج " منال . ط " حيث وضعت معها خطة مبدئيّة شملت التّعريف بنادينا الإنشاديّ " قندس " ففرقته، و بعض المعلومات عنّي، جلست عضوات الفرقة في الأستوديو؛ في حين كانت " نوال " و " كنزة " خلف الزّجاج في غرفة المراقبة و الإخراج، صدمني عدم وجود خوذات صوتيّة كافية لكلّ العضوات، هذا النّقص في الامكانيّات سيؤثّر حتما على الأداء، كانت " سهام " الوحيدة التي لديها الخوذة؛ تتبادلها حسب الدّور المعطى لها في التّوزيعات مع " وفاء "، كاد عملنا أن يضيع في لمح البصر، لدرجة أنّ أنشودة " بالعلم نتوّج فرحتنا " لم تمرّ على الوجه المطلوب، أعضاء فرقة " الوفاء " في مشكلة حقيقيّة؛ إنّهنّ لا يسمعنّ أنفسهنّ، و خاصّة عندما يصعدن في السلّم الموسيقيّ.

إستهلكنا 10 دقائق قبل أن تبدأ المذيعة بتعريفنا للمستمعين، قدّمتني في سطور مرحبّة بنا ثمّ أعطتني الكلمة لأتحدّث قليلا عن نادينا، تكلّمت عن تاريخ التّأسيس و عن مقرّ النّشاط وفق الفكر الإنشاديّ الحديث، مذكّرا أنّنا ما زلنا في مرحلة " تأهيل الذّات "، كما تحدّثت عن كتابينا " المحاولات الأولى " و " أوراق من المكتبة الإنشاديّة "، و دردشت طاطا " منال " مع عضوات الفرقة، و اختتمت الحصّة بتقديم أنشودة " رحمن يا رحمن " للمنشد العالميّ الشيخ " العفاسيّ ".

إقترحت عليّ طاطا " منال " أن أتعامل مع الشاعرة " حسناء بو مزروق "؛ فهي صغيرة السّنّ تستطيع التحدّث بلسان الأطفال، شخصيّا؛ ليست لي أيّة مشكلة مع أيّ طرف، المهمّ لي أن يثبت جدارته في اختصاصه، و أن يستعمل اللّغة العربيّة الفصحى في أعماله.

غابت " منال " عن المشاركة بسبب وفاة جدّها و خالتها، ممّا أفقدنا صوتها القويّ و نحن أحوج ما نكون إليه، رغم ذلك أستطيع أن أقيّم المستوى العامّ بنسبة 70 بالمائة، لقد عملت البنات كلّ ما يستطعن عمله، لهيبة المكان الجديد سلطتها على الجميع.

حين عدنا إلى مقرّ التّدريب في منتصف النّهار؛ إستمعنا إلى التّسجيل كاملاً؛ سُلّم لي من طرف مخرجة البرنامج مباشرة بعد انتهاء الحصّة، و لتقييم المشاركة التي اعتبرناها بادرة خير، فهي أوّل مشاركة لنا ذات نطاق أوسع من مشاركتنا الأولى في 05 جويلية 2013 الماضي.

في ذلك الأسبوع أعطاني " أحمد " الصّور التي التقطها، إخترت منها قرابة 15 صورة لأنشرها على صفحتنا في الفايس بوك، و أرسلها بدوري إلى مدير صفحة " أخبار العفرون "، يوم الخميس 24 أفريل الذي نشرها مباشرة، نحن في

أمسّ الحاجة إلى طرق اتصال من هذا النّوع، لقد عانينا كثيراً في السّابق قبل توفر الإنترنيت، إذ لم يكن يعلم أحد بما يفعله الآخرون، كانت العائلة الإنشاديّة دون شبكة اتّصال فعّالة، أمّا الآن فقد تغيّرت الأوضاع، لقد قامت شبكة المعلومات العالميّة بثورة في مجال التواصل بين الناس عبر كافة أنحاء المعمورة، و أضحى شخص ما على اطلاع بما يقوم به شخص آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات، ثورة هي في الأصل مسّت تقاليد كلّ شعب و أفكاره بصفة أساسيّة، و في مناخ كهذا؛ يجب أن تكون لنا مسلّمات نرجع إليها حين يختلط الحابل بالنّابل.

يوم الجمعة 25 أفريل حضر رئيس جمعيّة " النسيم " إلى مقرّ التّدريب رفقة " معمّر . ش " لاقتراح مشاركة جديدة لنا، في الأصل كان قد اقترح هذه المشاركة عبر الهاتف قبل 04 أيّام، و طلبت وقتا لمشاورة البنات، و لمّا لم تتبيّن الخطّة بما يكفي لاتخاذ تدابير مضمونة العواقب؛ تمّ إلغاء كلّ شيء، خشيت أن نغرق في مستنقع لا نستطيع الخروج منه كالذي حدث في مدينة " تيبازة " في العام الماضي، و المؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين.

أمام ضغط اختبارات نهاية السّنة الدّراسيّة؛ أوقفت تدريبات الفرقة الإنشاديّة التي أصبحت معروفة منذ مشاركة إذاعة " البليدة " باسم فرقة " الوفاء "، و أعطيت موعدا لعضواتها يوم الجمعة 23 ماي على السّاعة العاشرة صباحا في المقرّ المعتاد، خطوة مثل هذه؛ تُعتبر استراتيجيّة لدى الكثيرين، ليتفرّغوا للدّراسة، ثمّ مدّدناها إلى 30 ماي.

طلبت من " سفيان " إحضار الصّور و الفيديوهات التي سجّلها في الأستوديو، لقد أراني قليلا منها عبر آلة التصوير الرّقميّة التي يمتلكها، أردت أن أنسخ جميع الصّور و الفيديوهات و الحصّة المسجّلة في قرص مضغوط؛ أعطيها لكلّ عضوات النّادي كذكرى طيّبة يحتفظن بها، إلى الآن لم أطبع كتاب " أوراق من المكتبة الإنشاديّة " و أوزّعه على المشاركات كما هي العادة، مصاريف كثيرة يتطلّبها العمل لم أقدر على تأمينها، و جمعيّة " النّسيم " لم توفّر لي ما أحتاج إليه من أوراق و مستلزمات، فقرّرت الاعتماد على نفسي.

قبل انقضاء الأسبوع الأول من شهر جوان؛ كانت نسخ الكتاب بين أيادي البنات، مع قرص مضغوط حوى 06 ألبومات إنشاديّة مختارة، و كتابنا الأول " المحاولات الأولى " بجميع صوره، و الجزء 01 من كتابي " التّجربة القندسيّة "، الذي سُحب منه إلكترونيّا إلى غاية 31 ديسمبر 2014 قرابة 5500 نسخة عبر عدّة روابط على الإنترنيت، في انتظار ترجمته إلى لغات أخرى إن شاء الله.

كما أخبرتكم سابقا؛ ليست هذه أوّل مرّة أؤسّس فيها فرقة إنشاديّة، كي تكتمل الصّورة بكافّة أبعادها؛ يجب أن تعرفوا من أكون ؟.

ما هي خلفيّتي ؟.

أو بالأحرى سيرورة الأحداث من البداية حين لا يكون للصّدفة أيّ وجود و لا معنى.

ضابط إنشاديّ برتبة " إستبرق "

تشترك كلّ الحركات الإنشاديّة في الرّتب، هي درجات معرفيّة إرتقائيّة للأفراد، عددها 10، مختلفة للجنسين، موزّعة كالتّالي :

1 - السلّم الذّكوريّ على التّرتيب صعودا : سوار، رشيد، يمين، مشير، شفق، شاهين، إستبرق، مشير متقارب، جناح، ستار.

2 - السلّم الأنثويّ على الترتيب صعودا : سوار، إشراق، إيوان، سندس، سيرة، إيفاد، شعاع، وارف، واحة، ستار.

الرّتب الأربعة الأخيرة عند كلّ جنس هي رتب سامية، إذا تقلّدها العضو؛ أمكن له أن يتولّى مسؤوليّات لا يستطيع تولّيها من كان دونه.

يقتضي العمل ضمن مدرسة " الاختصاص " التقيّد بمجموعة من الخطوط الحمراء إضافة إلى مجموعة من القواعد، تُعرف لدينا كضرورات للعمل الدعويّ، و على كلّ فرد ذكرا كان أم امرأة أن يلمّ بما هو مطلوب منه أن يوفّره للآخرين كي يسير كلّ شيء على أحسن ما يرام، أمّا مستويات المعرفة؛ فتحدّدها رتب إنشاديّة كتلك التي في الجيش على سبيل المثال، أو حتى في أيّة جماعة أخرى، هذا مهمّ جدّا لدينا في مدرسة " الاختصاص "، فرتبتك معناها مستواك المعرفيّ، و معناها بصيغة أخرى قيمتك في المسيرة الدّعويّة.

في أفريل 2014 و بمناسبة مرور 12 سنة على تأسيس " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة "؛ تلقيّت عرضا من هذا الأخير يعرضون فيه انضمامي إليهم مقابل ترقيتي إلى رتبة أعلى من رتبتي الحالية، أيّ واحد في مكاني كان سيقبل مباشرة، هي فرصة العمر لتحسين المستوى، لكن هناك شيء يجب أخذه جيّدا بعين الاعتبار.

أنا ضابط إنشادي برتبة " إستبرق "، قليل جدّا من يعرف هذا و حتى المقرّبون منّي، لأنّ القوانين الدّاخليّة لا تعلن رتبنا دون أيّة مناسبة، أي أنّنا نركّز على العمل أمّا الرّتبة فتقريبا سريّة؛ و إن كنّا نظهرها من حين لآخر تذكيراً بها لا أكثر من ذلك و لا أقلّ.

ينتمي " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة " إلى حركة " الفجر الأخضر "، و هي حركة إنشاديّة ثوريّة، تعتقد أنّ القيام بثورة فكريّة على كافة المستويات هو ما يؤدّي إلى ترقية الإنشاد؛ بدل كلّ المساعي الأخرى، التي لا تجدي نفعاً، طبعا؛ ليست ثورة مسلّحة، إنما هي حسب تعريفهم التغيّر السّريع على 03 مستويات أو أصعدة : الأفكار و العواطف و الأوضاع، غير أن هذا الذي يسعون إليه شيء صعب، كونه سيحدث فتنا عند البعض و الفتنة أشدّ من القتل، و لا أجد نفسي مقتنعا كثيرا بما يدعون إليه، بل أومن أنّ تربية الأطفال وفق نسق مدروس كفيل بتصحيح كلّ ما هو خاطئ، هذا هو اقتناعنا في حركة " البراعم "، أمّا عند أصحاب " المقام الجديد " على غرار " شبكة المجرّة الإخباريّة "؛ فيقولون أنّ تغيّرات

بسيطة ستصحّح كلّ شيء، إذ المشكلة لديهم ليست في الأفكار بقدر ما هي في التّوزيع السّليم للأفكار، كلّ واحد له الحريّة في الاقتناع بما يشاء، لست ضدّ أيّة حركة فنحن جميعا جنود الدّعوة الفنيّة، غير أنّي لا أميل لبعض الأفكار لأني أرى أنّ الخير في أفكار أخرى، فإن كنت قصير النظر؛ فذاك العيب من نفسي و لله كلّ تنزيه و تقديس.

أمّا الضّبطيّة الإنشاديّة فهي الأهليّة لقيادة مجموعة من الأشخاص ما زالت لم تتهيّأ لهم الأهليّة الكافية لقيادة الآخرين، هذا بُعد آخر للرّتب، و هذا معناه أيضا أنّي أستطيع أن أكون على رأس نادٍ إنشاديّ، لا يستطيع أن يرأسه شخص آخر برتبة " سوار " مثلا.

على كلّ حال لن ندخل في تعقيدات أكثر من هذا، المهمّ أن يعرف الجميع أني لمّا رفضت الرّتبة الأعلى؛ ليس لشيء سوى لأنّي سأكون مجبرا على العمل في مسؤوليّات أكبر من مسؤوليّاتي الحالية و بأفكار أخرى لا أستطيع الاقتناع بها في هذا الوقت.

من المنطقيّ الآن أن تعرفوا بداية القصّة.

تلميذ الأستاذ " مأمون " و فاجعة وفاة الفنّان " عبد الرّحمن عزيز "

رغم كل ما سأقوله هنا؛ هو في الأصل لا يوفي حق من كاد أن يكون رسولا، و لو قليلا.

كنت تلميذا في السّنة 7 أساسي، برعم من البراعم المتفجّرة بالطّاقة، أدرس عند أساتذة و أستاذات أوصانا الله باحترام تعاليمهم، كيف لا ؟، و هم الذين يقدّمون لنا ما سوف نسعد به في الدّنيا و الآخرة.

كان يدرس معي زميل من فلسطين، إسمه " علاء الدّين . ش "، اتخذته صديقا فيما بعد، أخبرني ذات يوم أنه منخرط في فرقة موسيقيّة، يتدرّب من حين لآخر حسب توقيت الأستاذ الذي برمج هذه الحصص، لا يمانع في أن أحضر حصّة أو حصّتين، بل أكيد أنّ الأستاذ سيكون مسرورا جدّا، فذهبت و أنا في قمّة السّعادة، كوني سأكتشف عالما جديدا لأوّل مرة، كان ذلك مساء يوم الثلاثاء من سنة 1994، على السّاعة 00 : 13.

وجدت نفسي في مجموعة صوتيّة تحضّر لحفل نهاية السّنة الدّراسيّة، تحت إشراف أستاذ يحرص على إتقان عمله حرص الأمّ على سلامة وليدها، عملة صعبة كان يدرس آنذاك في المعهد العالي للموسيقى بالجزائر العاصمة، و يعمل كأستاذ في المادّة متكفّل بكلّ أقسام المؤسّسة التعليميّة، ممّا لا يدع له وقتا شاغرا، وقته كلّه للعمل؛ إمّا للتّدريس أو للدّراسة أو لتحضير المجموعة الصّوتيّة.

أخبرنا ذات يوم أنه ينوي فتح فرقة للآلات الموسيقيّة، كان أستاذي في المادّة، و أستاذ جميع تلاميذ و تلميذات إكماليّة " لزهر محمد " ، طرح الفكرة على جميع التلاميذ، مشترطا توفّر آلة عزف للمتعلّم، لكنه سرعان ما لمس لهفتي على طلب العلم، و شغفي الشّديد بما كان يقدّمه، فكان يحثّني على العمل أكثر فأكثر، إذ لم أكن أقتصر على المعلومات التي كان يزوّدنا بها أثناء المقرّر الدّراسيّ، بل أبحث هنا و هناك عن كل ما يقوّي يميني المعرفيّة، و لمّا تمّ اختيار العناصر التي شكّلت فرقة مجموعة العزف؛ كنت ضمن قسم آلة " الفلوت أ باك "، مدّة عامين.

كنت أذهب اليه مباشرة بعد انتهاء الدّوام الصّباحيّ، دون أن أتناول طعام الغداء، و أمكث عنده إلى غاية بدء الدّوام المسائيّ، كنت أعرف ساعات فراغه بالتّدقيق، و كان يفرح دائما حين يجدني أمامه، كنت أمثّل له شيئا ثمينا لم أكتشفه آنذاك، و لم أقدر على إدراكه، بل كدت أن أرتكب حماقة التوقّف النهائيّ.

لقد أضحى هذا الأستاذ كل شيء في حياتي دون أن أعلم أنه سيرسم معالم مستقبلي، بريشة من ذهب.

كان يوصينا دائما بتعلّم الكتابة الموسيقيّة؛ كونها لغة عالميّة نستطيع التواصل بها مع موسيقيّي العالم مهما كانت لغاتهم التي يتكلّمون بها، و أن نصبر على ذلك، لقد كان واثقا من أفكاره كلّ الثقة، إنّه يعي جيّدا ما يقول، صبور لحدّ غير معقول، هو الصّمود بمعنى الكلمة، و قبل انقضاء السّنة الدّراسيّة الثالثة؛ سمعنا أنه توقف عن التّدريس، ببساطة؛ لقد رحل من كان يشتعل لينير لغيره الطريق، و دون أن نعرف أيّ شيء آخر عنه، مجرّد معلومات يتناقلها التّلاميذ بينهم، كنّا

إرثا للمؤسّسة التّعليميّة التي وفّرت لنا كلّ الإمكانيّات دون أن يكون لهذا الإرث وريث شرعيّ، تركنا هكذا دون وصيّ علينا كالأيتام، لنتفرّق بين مختلف الطّبوع و ليستغلّنا آخرون.

لقد نجح الأستاذ " مأمون " في أن يُنشئ مجموعة من الأطفال على حبّ الموسيقى؛ على تنشئتهم تنشئة علميّة بحتة.

إنتقلت ذات يوم دون تخطيط مسبق إلى منزله الكائن بالمركز الثقافيّ لمدينة " البليدة "، حيث استقبلني والده بحفاوة شديدة، كان هذا في سنة 2003، تناولت معه فنجان قهوة فأخبرني بما كان يتحمّله من ضغوط كبيرة لأجلنا، من عدّة أطراف، لا لشيء سوى من أجل أن يعلّمنا، قصّة تبدو صعبة التّصديق، فما الذي يجبره على كلّ ذلك ؟، و هو الأستاذ الذي يتقاضى مرتّبا مقابل عمل ما محدود جدّا، لكنّه أراد التفضّل علينا بشيء كان يمكن أن يخفيه غيره، مثل والده و من شابه أباه فما ظلم، أخبرني أنّه في فرنسا يشتغل في مصلحة الغابات، متزوّج و له طفل.

أتذكّر أنه علّمني مبادئ " البيانو "، و كان على استعداد دائم أن يعلّمني أيّ شيء يعرفه في الموسيقى، ذات مرّة قدّم إليّ آلة " الأوبوا "؛ و قال : " أنفخ؛ إن نجحت علّمتك العزف عليها و ستكون أوّل واحد يتحكّم فيها "، كادت عيناي أن تخرجا من محجرهما و لم يخرج أيّ صوت منها.

لديه أفكار نحن في أمسّ الحاجة إليها الآن و نحن نعيش في بيئة لا تعرف العمل الخيريّ إلا من رحم ربّي.

هل كان يعجز أن يأخذ مالا يستعين به على النّوازل ؟ و يأمن به غوائل الزّمن و هو الأعزب آنذاك ؟، و ليس لديه حتى منزل محترم يأويه ؟.

لقد كان يبني مستقبله الدّنيويّ و الأخرويّ معا، علاقة معقّدة لا يفهمها النّاس الآن.

تخيّلوا معي أستاذا لمادّة ما كلّ تلاميذ المؤسّسة هم تلاميذه، أي باختصار لديه ما يقارب 500 تلميذ و تلميذة، ربما أكثر حسب التسجيلات الجديدة لكلّ سنة دراسيّة، أنّى سيتعامل معهم جميعا ؟، يظلّ يعمل محضّرا برامج كلّ الأقسام بناء على السّنوات، إذ برنامج السّنة الثالثة يكمّل برنامج السّنة الثانية؛ الذي بدوره يكمّل برنامج السّنة الأولى، كلّ هذا لتحقيق معرفة أوّليّة بعلم الموسيقى.

موازاة مع ذلك؛ يكمل دراسته في المعهد العالي للموسيقى، أين يختصّ بالعزف على آلة " الأوبوا "، عزفا عالي المستوى، لقد رأيته يحضر معه كتابا كبيرا دُوّنت فيه مقاطع طويلة و معقّدة من الموسيقى الكلاسيكيّة لأمثال : " بيتهوفن "؛ " موزارت "؛ " باخ "، ينظر في الورقة و يعزف، مسألة كهذه مدهشة لنا كثيرا، كيف يستطيع فهم هذه الرّموز ؟، يا إلهي ؟، كيف يستطيع قراءة هذه الأشكال المعقّدة و نحن لا نفهم حتى اللّغة الفرنسيّة ؟.

ذات مرّة كنت مارّا أمام مكتب الرّقابة العامّة، فألقيت نظرة عابرة إلى الدّاخل؛ فرأيته مكبّا على الكتابة، أظنّ أنه كان يملأ كشوف التّلاميذ، لأنّنا كنّا في موسم فروض الفصل، و ما إن نظر نحو الباب؛ حتى أشرت إليه بيد تعزف في الهواء،

إشارة معناها أن نذهب إلى قاعة الموسيقى لتعلّمني العزف على آلة " البيانو "، كنت بعيدا عنه قليلا فلو تكلّمت ما سمعني، و لو سمعني ما فهم قولي، لاحظت أنه نهض مباشرة تاركا كل ما في يديه، و علامات الحزن بادية على وجهه، ما زلت أتذكر إلى الآن تلك الصّورة، و كأنه أمامي، أوّل مرّة أرى فيها أستاذي حزينا على هذا النّحو، ظننت أني أزعجته؛ أو أنّ هناك مشكلة مع الإدارة أو مع أولياء التلاميذ، أو حتى مع المدير، أو أيّ شيء آخر عدا وفاة أستاذه المرحوم " عبد الرّحمن عزيز "، عرفت فيما بعد أنه كان من أشدّ المقربين إليه؛ كان يمثل له والدا ثانيا، و هو الآن في حزن عميق على فراق أب علّمه مثلما هو الآن يعلّم آخرين، و مثلما أنا الآن أعلّم آخرين.

هي الرّسالة التي علينا جميعا تناقلها عبر الأجيال، و كفى به شرف الرّسالة من شرف.

لقد ساهم " عبد الرّحمن عزيز " في تنشئة جيل متشبّع على مبادئ الإنسانيّة، قبل شيء آخر، له أخلاق فنّان التي نفتقدها في عصرنا الآن، لم يكن منشدا بالمفهوم العصريّ للكلمة؛ إنّما كان " مغرّدا "، تناول مواضيع نتناولها نحن الإنشاديّون، كان يستعمل آلات العزف الموسيقيّة أما نحن فنوظّفها فقط، أتحدّث هنا عن زمن كانت مدرسة " التّتابع " هي المدرسة الإنشاديّة المسيطرة على السّاحة قبل ظهور مدرسة " الاختصاص "، و إن كانت مدرسة " التتابع " آنذاك لا تستعمل آلات العزف بسبب الدّين، و لكن ظهر فيما بعد أنّ الكلّ يخدم الكلّ.

لا أعرف ما آلت إليه الأوضاع بعدئذ و ما حلّ بالفرقة الموسيقيّة التي كوّنها الفنّان " عبد الرّحمن عزيز "، و الذي كان الأستاذ " مأمون " عضوا فيها، و لم أجرؤ أن أسأله.

كنّا 07 تلاميذ في فرقة العزف، نشكل ما يوصف بالاستثناء في إكمالية " لزهر محمد "، تعب علينا أستاذنا كثيرا؛ بذل وقتا أثمن من أيّ مال، في حين توقفت المجموعة الصّوتيّة للمشاق التي كان يكابدها، بعد مرور أكثر من 20 سنة الآن؛ أدركت أنّ الأستاذ " مأمون " كان يركّز علينا نحن فقط، لأنه أراد لنا خيرا لم نكن نفهمه آنذاك.

إليكم الآن أسماء مجموعة العزف التي كنت ضمنها : " سفيان . ق " على آلة " القيتارة "، " سفيان . ب " على آلة " السانتيتيزور "، " نسيمة . ب " و " لامية . غ " على آلة " الكلارينات "، " حفيظة . ا " و " سامية . ا " على آلة " الفلوت أباك "، " محمد . م " على آلة " الباتري ".

كان يشجّعنا على تعلّم أكثر من آلة موسيقيّة واحدة، كما كان له فضل كبير بعد الله تعالى على " كريمة " و " نوال " في تلقينهما طريقة العزف المحترف على آلة " البيانو "، لم تكن منخرطة معنا في الفرقة، كنت أراها جالسة أمام " البيانو " من حين لآخر تُسمعه حصيلة تدريباتها المنزليّة، في حين لم يستطع توفير آلة " العود " لتلميذة أبدت رغبة في تعلّمه.

ليغفر لي أستاذي كل ما تجشّم من أجلي، و أنا الذي كنت لا أستطيع الحفاظ على وزن ثابت للمقطوعة، كان يتبع معي أسلوب الشاهد حتى إذا تمكنت منه زاد في تعقيد الإيقاعات، كان يوصينا بالعمل الدؤوب، و كان يحاول تنمية الأحاسيس الدّاخليّة و توجيهها إلى وجهة مناسبة ... كان يحاول تنمية الذّوق الفنيّ بكلّ ما أوتي من عزم و قوّة.

إستغلال الفرقة الموسيقيّة و تشتت الأعضاء

توقف الأستاذ " مأمون " عن التّدريس فجأة و عن العمل معنا دون سابق إنذار، و دون أن يعلّمنا بشيء، كنت حينها في السّنة 9 من التّعليم المتوسط، لمّا أخبرونا في الإدارة عن إلغاء مادّة التربية الموسيقيّة، من برنامج التّعليم في المؤسّسة؛ رحنا نتسائل عن مصير الأستاذ قبل أن نتسائل عن مصيرنا، لقد رحل أبانا المعرفيّ، ظنّنا في بادئ الأمر أنّه وجد عملا آخر، هكذا كان اعتقادنا، لم نلمه على التّفريط بنا؛ لقد بذل كلّ ما في وسعه ثم نفذ صبره حين وجد نفسه وحيدا.

أخبرني والده قائلا : " لقد ضحّى من أجلكم و تحمل ضغوطا تتزايد باستمرار، للأسف الشديد لم يكن في استطاعته تحمّل المزيد "، ثم قالت لي والدته : " لقد كان يحبّكم "، و رنّت هذه الكلمة في أذني ليس كأيّ رنين.

في تلك السّنة أو بعدها؛ أتى إلينا أستاذ فنون تشكيليّة كي يأخذ مكان أستاذ التّربية الموسيقيّة الشاغر، " سليم . غ "، الذي تعاملت معه حين كنت في جمعيّة " النّسيم "، أراد ملأ الفراغ الرّهيب الذي تركه أبانا المعرفيّ، في تلك الفترة كان مهتمّا بالرّسم و ما شابه؛ و هو الآن يشرف على النّشاطات في إكماليّة " محمّد لزهر " بما في ذلك الفرقة التي أسّسها في وقت سابق من تلاميذ المؤسّسة.

من كان يعلم أنه بعد 20 سنة سأتعامل معه كزميل ؟، و هو الآن صديقي ؟.

نعم كان أستاذي في مادّة الفنون التشكيليّة و مرّ الزمن و التقينا من جديد، ما زلت أشهد له بحبّه لمهنته و أنه لا يتأخّر في مساعدة أيّة موهبة، أخبرونا في الجامعة أنّ الأستاذ نبع ماء متنقل؛ فاستسق لنفسك منه قبل أن يجفّ، و سبحان الذي يُميت و لا يموت.

نحن الآن في سنة 1993، على مشارف تدهور الوضع الأمنيّ، و دخول الجزائر في أزمة حقيقيّة، أزمة شلّت الحركة الثقافيّة مدة 10 سنوات كاملة و أكثر بما لها من تداعيات، تراجع خلالها الإنشاد، هرب من هرب إلى خارج البلد، و قتل من قتل في الدّاخل، و الأسوء من ذلك؛ تغيّر اجتماعيّ رهيب و مؤسف، 10 سنوات معناها جيل كامل نشأ على أخبار الذبح و الحرق و التنكيل، لا يعرف من الوجه الثقافيّ سوى أشياء يسمح بها الوضع العام، تفجيرات في المدن و مجازر في الأرياف، و أجواء مشحونة؛ مكهربة، لا أحد يثق في الآخر، حتى الإخوة في المنزل الواحد، و الناس قسمان : إمّا إلى جانب الدّولة أو إلى جانب الجماعات المسلّحة، و لن تستطيع أن تكون حياديّا و لو حاولت، لأنّ كلّ الأحداث تفرض عليك أن تحدّد جهتك، لا أحد يعرف ما الذي كان يحدث آنذاك سوى مهندسي تلك المرحلة من ضبّاط الاستخبارات العسكريّة.

في الجزائر ضبّاط المخابرات هم كلّ شيء، هم الذين يتحكّمون في كلّ شرايين البلاد، و حين يريدون شيئا فسيتحقّق، هم الذين أتوا بالرّئيس الحالي " عبد العزيز بوتفليقة " إلى الحكم، و قدّموه للجماهير بناء على مؤهّلاته، فقد كان وزير خارجيّتنا، الجميع في الجزائر يعلم ذلك، و ما هذا بسرّ على الإطلاق.

أذكر مرّة حين كنا في حصّة الرّياضيّات؛ قالت لنا الأستاذة أنّ الانتخابات ألغيت، و أن هذا ليس من شأنكم، كنّا نريد للانتخابات أن تبقى؛ لا لشيء سوى لأنّ ذلك معناه أن الخميس يوم عطلة، أمّا من ينجح و من يفشل سياسيّا؛ فذاك شأن الدّولة و ليس شأننا، لقد كنّا مشغولين بما ينشغل به أقراننا في تلك السنّ، و لمّا استتبّ الدّخول المدرسيّ قرّرت الإدارة إعادة إحياء الفرقة الموسيقيّة، و لكن أنّى السّبيل إلى ذلك و لا أستاذ موسيقى ؟، لقد تكفل أستاذ الأدب العربيّ مشكورا بالمهمّة، أشرف علينا و لم يكن لديه ما يقدّمه لنا، لم يكن الإشراف بما تعنيه الكلمة من مفهوم، إنّما هي تعليمات و مرافقة هيكليّة مع تقديم ما كنّا قد تدرّبنا عليه حفاظا لماء الوجه في المشاركات.

ثم تشتتت الفرقة و انشغلّ كل واحد بدراسته، أتذكّر أني التقيت مع " حفيظة . ا " مرّة أو مرّتين فقط ثم انقطعت الاتصالات، و لا أعلم عنها شيئا الآن، ربما تكون متزوجة و لديها أولاد.

ذات يوم كنت في ساحة المدرسة في استراحة السّاعة 00 : 10؛ إلتقيت بزميلة سابقة لي " فاطمة الزهراء . ع " التي أعطتني عنوان الأستاذ " مأمون " و قالت أنه عنوان بريديّ موثوق به، على كل حال هي الآن أمّ لعدد من الأطفال، كنت مع صديق الدّراسة " فيصل . خ " الذي كان معنا في هذا النّشاط ثم توقّف، أرسلت له رسالة ليجيبني بأخرى استهلّها بعبارة : " إلى التّلميذ الوفيّ النّجيب "، موصيا فيها بالمواظبة على الدّراسة، و أمّنني إيصال تحيّاته إلى كلّ الزّملاء والزّميلات.

مغامراتي في فنّ " الرّاي "

يبحث الإنسان دائما عن شيء يحقّق له طموحاته، و هو لا يدري أنّ ما بحث عنه يُصنّف كسلوك يضاف إلى جملة مميّزات شخصيّته.

حصلت على شهادة البكالوريا في سنة 1996 في شعبة " الآداب و اللّغات الأجنبيّة "، الشّعبة الأولى التي تتأسّس في مدينة " العفرون "، إذ كنا ندرس الإسبانيّة إلى جانب اللّغات الأخرى كالعربيّة و الفرنسيّة و الإنكليزيّة، لم نكن نعلم بمن نجح و بمن رسب حتى وضعت الإدارة القائمة مساء يوم الأربعاء، حين ذهبت للثانويّة يوم الخميس صباحا؛ بادرني زميلي في الدّراسة " نور الدين . ب " بالتّهنئة، لم أصدّق في البداية حتى رأيت اسمي في قائمة النّاجحين، ثم اكتشفنا حدوث خطأ بسببه لم ينج زملائي و زميلاتي من إعادة السّنة، لم تُحسب نتائج التربية البدنيّة مما أنقص المعدّل، و رغم وجود آلية الإنقاذ؛ إلاّ أنها لم تنقذ الكثيرين مثل " سامية . م "، " منال . غ "، " كمال . م "، و القائمة طويلة.

شهادة بكالوريا في الجزائر في تلك الفترة و إلى الآن معناه افتكاك تأشيرة إلى عالم النجاح، و لكني كنت أنظر إلى النجاح من منظور مختلف جدّا، هواياتي في الموسيقى أثرت على توجّهاتي، أصبحت أنظر إلى المسألة من زاوية تختلف جذريّا عن الزاوية التي كنت أتبناها سابقا، وجدت نفسي أكتب الشعر الموجه إلى أغاني فن " الراي "، لم أكن أعلم أن هذا حرام، و أن هذا الفن الغنائي فن خطير يفسد الشباب، كنت شابّا لديّ فكرة غير سليمة مفادها أني أعبّر عن مكبوتات الشباب الذين ليست لهم موهبة التعبير عن مكنونات المشاعر و الأحاسيس، أحسّ بالنّدم على كل ما كتبته و أحيانا أحمد الله على أن كتاباتي لم تخرج للنور، و لكني خرجت من ذلك بتجربة خاصّة أستطيع الآن أن أوظفها في شيء آخر.

كان الشاب " حسني " مثالنا، هو الفنان الذي يساعد غيره في التعبير عن الآلام التي لا يحسنون التعبير عنها، لطالما فكرت في هذا الشخص و القيمة الفنيّة التي أعطاها للمجتمع، و لا أعرف كيف انتشر هذا الاسم بين الناس دون إشهار و كأن في المسألة يدا خفية بسطت سيطرتها على مكبوتات الشباب، كان غيره من المغنين كثير و لكن تميّز هو بصوت جذاب، كان يريد البروز في كرة القدم غير أن الله أراد له شيئا آخر.

في تلك الفترة انتشرت أشرطة الكاسيت التي تضم 06 أغاني و أحيانا 08، لقد أغرق الشّاب " حسني " مجتمعنا بعشرات الأشرطة، و مع كل أغنية يزداد حب الناس له، و مع حب الناس له يزداد تجذر أعماله بينهم، يبدو أنه كان على نيّة سليمة بيد أنه استُعمل في المكان غير المناسب، و حين قُتل؛ ظهر المفتونون به و مقلّدوه و كأنه سنّ سنة سيئة بنيّة حسنة.

لم تسمح هالة هذا الفنان برؤية آخرين معه، حتى إذا غادر الدّنيا برز المئات ممّن يزعمون أنهم ألسنة أمينة للشباب، لا أتهم أيّ أحد في نيته فأنا أعتبر أن أيّ فنان إنما هو إنسان بالدرجة الأولى، و له ما له كما له ما عليه.

حين تكون شابا تفتقر إلى التجربة و الحكمة؛ لا تستطيع التفريق بين الخير و الشر، فقد تفعل ما تعتقد فيه خيرا، و هو ما كنت عليه، بدأت كتابة الشعر في سنّ مبكرة ثم تحول كل شيء إلى فن " الرّاي "، كان هذا المصطلح منبوذا في

المجتمع، كان مصطلح " الأغاني العاطفيّة " التّسمية المهذّبة له، بهذا المصطلح يتم استدراج الحسّاسين أمثالي، في حين كانت الفنون الغنائيّة الأخرى في سبات عميق، و أمام تدهور الأمن و احتقان الوضع السياسيّ؛ كان الملجأ الوحيد للشباب هو الفنان " حسني ".

لا غرابة إذن أن تتحوّل المشاعر إلى المرأة، و الآن بعد مرور حوالي 20 سنة؛ ما زلت أتمنى أن يظهر من يعيد الشباب المفتون بهذا الفنان إلى الطريق السليم، بتطوير أسلوب إنشادي جديد.

كان الفنّانون في الجزائر من مطربين و مطربات يشتكون من اندثار الفنّ الأصيل، و لكن في الواقع هم من كانوا السّبب وراء ذلك، كان كلّ شيء يتطوّر، و التطوّر يقف عندهم، و لمّا يصبحون عاجزين عن السّيطرة على جماهيرهم؛ تتلقّفها أطراف أخرى أحسنت الاصطياد، لقد نزعت الأجيال إلى أعلام وجدت فيها ضالّتها، و بقوا هم يجترّون ذكريات الماضي مع أجيال الماضي، كانت هذه الفكرة تشغلني باستمرار، لماذا أصبح المطربون الجزائريّون على الهامش ؟، و كأنهم من كوكب آخر يغنّون لأناس من هذا الكوكب، مسألة الاستغراب مسألة خطيرة جدّا و لا أحد ينتبه لها في الوقت المناسب، أخشى ما أخشاه أن نقع نحن فيها، حينها لا تسل عن هلك الجمهور.

بلغ عدد الأغاني التي كتبتها حوالي 300 أغنية، ثمّ لاحظت أنّ مستواي بدأ في الارتفاع، على اعتبار الخبرة الزمنيّة، فأيّ شخص يداوم في ميدان ما؛ إلا و يكتسب نوعا من الخبرة فيه، ستظهر من العبارات التي يستعملها، و الأوزان المستخدمة، المهمّ أنّي لم أخرج أيّة واحدة منها للنّور رسميّا، اللّهُمَّ سوى بعض الأصدقاء الذين أطلعتهم على كتاباتي، و كأنّ الله لم يشأ لي أن أنفث سمّا زعافا بين الغافلين و الغافلات، كان طموحي أن أعيد صياغة فلسفة هذا الفنّ من جديد، لكنّ المولى كان يحضّر لي شيئا آخر اسمه برنامج " عفيف ".

أتذكّر أنّي زرت استوديو " sonostar " و التقيت هناك بكاتب كبير و ملحّن في فنّ " الرّاي "، كان ينظر إليّ كأني سأزاحمه في غنيمته، لمحت سريرا على يمين الغرفة فأدركت أنّ هناك من يبذل جهودا خارقة من أجل النّجاح، هذه الأشياء لا توجد في فنّ الإنشاد، كلّنا جنود للدّعوة الفنيّة، و الله غنيّ يزرق من يشاء، و من حسد أخاه في شيء؛ أبغضه تعالى و حطّ من أعماله.

في سنة 2012 و بالضّبط في شهر مارس؛ فكّرت من جديد في مشروع ربما لم يفكّر فيه أحد؛ يجمع بين خبرتي في كتابة أغاني " الرّاي " و بين صوت فنّان أشتهر في هذا الفنّ، هو المنشد " جلول "، أو كما كان يُعرف سابقا الشاب " جلول "، لقد استمعت إلى أعماله الجديدة، و لكنّ هناك مستوى أرفع من هذا يجب له الوصول إليه، في ظلّ ما يتمتّع به من إمكانيّات اكتسبها في سنوات حياته الفنيّة السّابقة، و هذا يستدعي دراسة عميقة لحالته، و حالة العائدون إلى الله أمثاله، سبحان الله لم يشأ الرّحمن أن يدعه فيما هو فيه، لقد علم أنّ في نفسه خيرا كثيرا فأقبل عليه و هو العبد الضّعيف، طيّبون هؤلاء الذين جنوا على أنفسهم إلى حدّ بعيد، لا تتصوّروا الشرّ كامنا فيهم، إنّما هي العقليّة التي حدّدت توجّههم لهذا الفنّ أو لغيره، و رسمت طريقا بريشة ملطّخة بشوائب النّفس البشريّة، و نحن إن نبتغي الإصلاح؛ يجدر بنا الأخذ بأيادي

هؤلاء بعدما صفت قلوبهم، و خانتهم من قبل وسيلة التّعبير.

لو لم أكن من المطّلعين على ما يحدث في عالم " الرّاي " لما استطعت أن أحدّد " معالم الاحتواء "، و أرجو أن تنتبهوا لهذا المصطلح جيّدا.

نؤمن في مدرسة " الاختصاص " أنّ الإنشاد دعوة فنيّة، و الدّاعي يجب أن يلج لغة المدعوّين موازنا بين مستواهم المتواضع و بين ما يدعوهم إليه، و المنشد " جلّول " له جمهوره الخاصّ به، فلا يمكن أن يهملهم و يتّجه إلى جمهور آخر، إذا سألت عن الكيفيّة سأقول لك أنّ الأسلوب الجديد الذي سينهجه في التنشيد يحدّد طبيعة الجمهور المستهدف و لو عن غير قصد، مثلا لو أنشد باللّغة الفصيحة سيستقطب جمهورا معيّنا، و لو استعمل ألحانا غير التي كان معتادا على استعمالها سيستقطب جمهورا معيّنا، هذه الأشياء ستحدث لا محالة في ذلك، و رغم أنّ مدرسة " الاختصاص " تنادي بضرورة استعمال لغة آكاديميّة في القصائد؛ إلا أن المنشد " جلول " حالّة خاصّة، كونه كان في فنّ غنائيّ آخر على غرار الفنّانين التّائبين من مصر مثلا أو سوريا، كلّ واحد منهم كان لديه أسلوب معيّن في الغناء، و معه جمهوره، فلو بدّل المسلك من المؤكد أن يتغيّر الجمهور، و لكنّنا نريد أن نبتكر أسلوبا جديدا في الإنشاد يستطيع به هذا الفنّان التائب العائد إلى جادّة الحقّ أن يحتفظ بجمهوره القديم، و يبقى علما لهم مثلما كان؛ لكن في الحقّ مؤيّد من الحقّ.

على هذا الأساس تدعو مدرسة " الاختصاص " المنشدين إلى تحديد جماهيرهم بدقّة، كي لا تحدث فوضى في مسألة الاستقطاب.

المهمّ أني شرعت في كتابة بعض الأناشيد باللهجة العاميّة على لسان الأطفال خصّيصا للمنشد " جلول " و موجّهة لجمهوره القديم ثم آثرت التريّث.

حدث بعد صلاة الجمعة !

كما تعلمون؛ عند انتقالي للثانويّة توقّف كلّ شيء، كنت ألتقي بزملاء تلك الفترة من حين لآخر، نتبادل الأخبار، كان الوضع الأمنيّ في غاية التّدهور، هرب كلّ الفنانين إلا قليلا منهم إلى الخارج حفاظا على حياتهم، العشريّة السّوداء في أعلى مستوياتها، و سعيد الحظ من لديه عمل قريب للمنزل يشغله، أو دراسة يهتمّ بها، أو هو الفراغ القاتل في ظلّ انهيار الاقتصاد الجزائريّ.

كلّ يوم نستيقظ على أشخاص مذبوحين في الطّريق، ذات يوم كان الجميع يتحدّثون عن ذلك الذي اختطف أمام مرأى و مسمع الناس، كان يصرخ و هو محاصر في سيّارته، و لا أحد كانت لديه الشّجاعة لإنقاذه.

إنتقلت إلى الجامعة التي تبعد عني بحوالي 30 كيلومترا، في هذه الأثناء بدأ الوضع الأمنيّ في الاستقرار شيئا فشيئا، و عاد الحراك الثقافيّ إلى الجزائر ببطء شديد، متثاقلا و بدأ الجيل الجديد في التشكّل، تغيّرت المفاهيم و حدثت عدّة تحوّلات، ففاتحني مرّة صديقي " سحنون . ب " عن فرقة إنشاديّة يسعون لإنشائها في دار الشّباب، طالبا منّي الإشراف عليها بحكم معرفتي الموسيقيّة، كان ذلك في يوم من أيّام الجمعة بعد الصّلاة، لم أعارض المسألة معتبراً الفكرة منطقيّة في متناولي، رغم أني لم أعر للأمر أهميّة كبيرة، فرقة إنشاديّة معناه مجموعة صوتيّة، و مجموعة صوتيّة معناه قواعد موسيقيّة.

هذا هو الأساس الذي انتقلت بناء عليه، ما كنت أعرف شيئا في الإنشاد، و ما كان الإنشاد يعني أيّ شيء لي، كنت في العشرينيّات من عمري؛ أحلم بالمال و بالشهرة و بعشيقة شقراء، و حين يناديك الرّبّ أن تعمل من أجله شيئا؛ فإنّك ببركته العظمى ستعمل أشياء و أشياء و أشياء، و سيتغيّر حلمك البسيط من مجرّد أوهام أرضيّة؛ إلى ملكوت الربّ الذي ناداك، و كلّما حملت هموم الدّعوة؛ أرسل الله إليك من يحمل همومك طوعا و قسرا، فسارت إليك الشّهرة حثيثة الخطى كصاحبة الوجه الحسن.

" سحنون " صديق لي من أيام المتوسّطة، كنت في القسم 5، بينما كان هو في القسم 4، ثم التقيت بصديق آخر له بعد الله فضل عليّ في ميدان الفنّ هو " يوسف . خ "، كانا يزورانني في المنزل من وقت لآخر، عرفت فيما بعد أنّهما يسعيان لكسب ثقتي، لقد كانت لديهما خلفيّة إنشاديّة، و عليه تمّت دعوتي لمساعدتهما.

تأسيس فرقة " أنسام الصّباح "

كنا 05 فقط من اتخذنا قرارا بإعادة إحياء إسم قديم لفرقة معروفة في مدينة " العفرون "، في اجتماع في دار الشباب اتفقنا فيه على تأسيس فرقة إنشاديّة، نحن التالية أسماؤنا : " سحنون . ب "، " يوسف . خ "، " بلقاسم . ب "، " زهير . ح "، ثم انضمّ إلينا آخرون مثل : " عبد القادر . د "، " العربي . ي "، ربما يتسائل البعض عن سرّ العدد القليل الذي دفع بالفرقة إلى الوجود، لقد كان في استطاعتنا إحضار الكثير، و لكن ما فائدة إكثار المؤسّسين ؟، المهمّ أن تكون فرقة إنشاديّة متماسكة، و العبرة بالعمل لا بالعدد، لم نشأ الاعتماد على أفراد لا يلتزمون بالحضور، كلّ و أشغاله الخاصّة، قلنا أننا نحن النواة الأصليّة للفرقة، و هي قائمة علينا، و من أراد الالتحاق بنا فهو و ضميره، لا نريد من يتغيّب، أو يعتذر بعذر أقبح من ذنب، تنتظرنا تدريبات شاقة و يجب على الجميع أن يكونوا في أعلى درجات الاستعداد، و أن يضحّوا لأجل الدّعوة قبل كل شيء.

حين أهلّت سنة 2002 كان كل شيء جاهزا، كنا نتدرّب في قاعة صغيرة، لم يساعدنا مدير دار الشباب " زهير . ز " بشيء ماديّ ملموس كبير سوى القاعة الصّغيرة التي منحها لنا، كلّما التقينا به أخبرنا أنه سيساعدنا، طلبنا علبة إيقاع للحصول على مختلف الإيقاعات بسهولة تامّة، و لكن اتّضح فيما بعد أن الكلمات سهلة مقابل الأفعال، و الغريب أنه كان يضغط علينا للمشاركة، لم يكن يثق في جودة عملنا، فقرّرنا الاعتماد على أنفسنا في توفير كلّ ما نحتاجه من مستلزمات، و يا لها من مستلزمات ؟.

بعد مدّة استطعنا توفير بعض المال اشترينا به آلة " دربكة " من بائع الأدوات الفخاريّة، يقع مباشرة على بعد 10 أمتار منا، لم تكن آلة إيقاعيّة جيّدة؛ إنما هي لمن يريدون الطرب داخل منازلهم من النّساء، ما باليد حيلة، يجب أن يكون لنا شيء نؤمّن به العمليّات الإيقاعيّة، ثم اشترينا " دفّا " من عند بائع التّجهيزات الموسيقيّة " العمري " المشهور في الجزائر العاصمة، الذي وجدنا محله بصعوبة، الكل يعرفونه و لكن لا يعرفون موقع متجره، أتيت إليه في السّابق مرّة أو مرّتين، قلت لزملائي أنه هنا في هذه الأزقّة و أشرت إلى المنطقة بأصابعي، ثم انفجر الجميع ضحكا حين أضفت أنّ قطّا أبيضا كان يجلس بالقرب منه، قال لي " زهير . ح " عضو الفرقة : " نحن نبحث إذن عن قط كان يجلس هنا منذ 05 سنوات ".

ثم منحنا مدير دار الشّباب في الأخير آلة " طار " من النّوع الرّفيع في أعيننا؛ كانت محسّنا لأعمالنا.

كنا نتدرّب بكلّ صرامة بعد صلاة الجمعة مباشرة، هو الوقت المناسب للجميع، فقد كنا في الجامعة و كلّ واحد لديه توقيته، كما أنّ التدريب في المساء لا يفيد، إذ كان العياء يأخذ منا كل مأخذ، حتى في الصّيف؛ و حين تشتدّ الحرارة نؤخر الحصّة إلى السّاعة 00 : 16 أو 00 : 18، و في هذه الأثناء تعرّفت على الأستاذ " عبد القادر . ب "، كانت له ورشة رسم زيتيّ مع " رابح . ش "، و الأستاذ " نور الدّين . س " و غيرهم، كان يسود جوّ أسريّ بين الجميع، نحن في تدريباتنا و هم في رسوماتهم؛ لا ينزعجون من الأصوات الصّادرة عنّا.

كنا نعتمد على السرّية إذ لا يجب أن يعلم أحد بوجود فرقتنا اتقاء للعين و الحسد، و لكنّ الأصوات القادمة من الطّابق 01 كانت تفضح جهودنا، خبر وجود فرقة إنشاديّة في مدينة صغيرة شيء لا يمكن إخفاؤه.

إنتقلنا بعدها لمقرّ قسمة " العفرون " السّابق، مساحة كبيرة مقارنة بما كنّا فيه، هو الله الذي ينزّل الرّزق بقدر، لكن ما أعطانا إيّاه مدير مركز التكوين المهني آنذاك من قاعة كبيرة هي في الأصل ورشة؛ كان أعظم هديّة تقدّم لنا، شرط أن نداوم على المشاركات و إحياء الحفلات لديه، أتذكّر يوم ذهابي إلى تلك الورشة فوجدت بعض الزّملاء في خضمّ حملة تنظيف، لم أرد الانضمام لهم، أحسست أنّ شيئا ما ليس على يرام، فانسحبت من الفرقة، نحن لا نتحرّك على أسس منطقيّة، هناك خلل ما في القضيّة ككلّ، و فعلا سحبوا منهم قاعة التّدريب بسبب معرض كتب كانت بعض العناوين فيه مثيرة للسّخط، و تفكّكت فرقة " الأنسام " نهائيّا بعد ذلك.

الصّدمة

لم أكن أعرف شيئا في الإنشاد و جلّ الذي يعلّم و لا يتعلّم.

كنت في الفرقة أمارس مهمّة الإشراف عليها، على أساس معلوماتي الموسيقيّة، و لا أعرف شيئا غير ذلك، كنا نتدرّب على مقام " دو " الكبير أي مقام " العجم "، لأنه أسهل مقام يمكن لأية فرقة أن تبدأ عملها به، و لكن كلّ ما فعلته لا يكفي.

وجدنا أنفسنا أمام مشاكل معقدة ينبغي حلّها، مثلا قضية الإشراف، إقترح " سحنون " أن يكون كلّ واحد منّا هو المشرف في حصّة من الحصص، فكرة غير منطقيّة في الواقع، بعض الأفراد لا يعرفون أيّ شيء في الموسيقى فكيف سيشرفون على فرقة ؟!.

ثم إنّ مسألة الإشراف مسألة قياديّة، بالمعلومات التي لدى المشرف يوجّه تعليمات لباقي الأفراد الذين يجب عليهم الانصياع إلى أوامره، أو هي الكارثة، ثمّ إذا كان كلّ واحد لديه طريقة في الاشراف؛ فهذا يُعتبر كارثة أخرى، ما نبحث عنه هنا هو مجموعة أفكار مشتركة تشكل قاعدة للارتكاز عليها.

كلّ شيء تعقّد أمامي و على مرور الوقت يزداد الأمر سوءا.

فكرت في البحث حيث أضحت الموسيقى لا تكفي، يجب أن يوجد في مكان ما من العالم من سبقنا لهذا، من وقع في نفس المشكلة و خرج منها ظافرا.

إعتذر " توفيق . ن " العضو السّابق في فرقة كانت تنشط بالمدينة عن المساعدة، كونه لا يعرف ما آلت إليه الأوضاع بعد العشريّة السّوداء، كل شيء تغيّر بحيث أصبح على الجميع مراجعة أفكارهم و أهدافهم، كما أنّ إدخالي لمسألة توظيف الموسيقى و ليس استعمالها كما يظن البعض و يعتقد؛ أعتُبر شيئا ثوريّا آنذاك، لقد زارنا مرة " مراد . ل " مشرف فرقة سابق و لم يعجبه ما كنت أعمله، لم يستسغ مسألة الدّيوان الموسيقيّ الذي كنّـا نتدرّب على تقليده.

إذن كل شيء حولي يدفع إلى ضرورة فهم الوضعيّة الجديدة، إذا كنّا فعلا نريد النّجاح، يجب أن نكون على دراية تامّة بما نضع أرجلنا عليه لنسير إلى الأمام، أفكار الماضي ذهبت و نحن الآن على أبواب القرن 21، ما زلنا نتناقش في أمور تافهة، ما زلنا نختلف عمّن يأخذ دور الفرديّ.

ما راعني عبر الزّمن هو الضّغط الذي كان عليّ لنشارك، قال لي " يوسف " : " يجب علينا أن نشارك، يجب أن يظهر اسم فرقتنا "، قلت له : " ليس لديّ مانع لكن كيف سنشارك و نحن قلّة عاجزون عن الاتيان بأصوات صحيحة سليمة يطرب لها المستمع ؟ ".

بعد حوالي سنة؛ أيقنت أنّ فرقة " أنسام الصّباح " التي أسّسناها نحن الخمسة لم تكن لوجه الله تعالى كما كان يُشاع، بل كان " يوسف " المحرّك الأوّلي لها من أجل الظهور أمام فوج الكشّافة، و كأنّ القضيّة تصفية حسابات، و الله يحاسب كلّ واحد على نيّته، كلّ الدلائل تدلّ على هذا الاعتقاد، لماذا كان يوصينا بالسريّة في العمل ؟، من أجل إحداث المفاجأة، ثم ما معنى الحديث عن الفرقة هنا و هناك حتى إذا وُجّهت لنا دعوات المشاركة نجد أنفسنا في حرج شديد ؟، مستوانا تحت الصّفر و يقول أنه يجب علينا تلبية الدّعوات مهما كلّفنا ذلك، كي لا يترسّخ اعتقاد التكبّر لديهم، صارحته يوما : " إسمع مني شيئا مهمّا، إذا ذهبنا للمشاركة؛ سيستقبلوننا أحسن استقبال ثم نصعد للمنصّة فيعمّ الصّمت، هم ينتظرون منا أن نقدم شيئا عمليّا نثبت به أننا فرقة ".

صمت و لا أعلم ما فعله بعد ذلك.

كنت أعاني كثيرا في التدريبات، المكان ضيق و حارّ لدرجة لا تطاق صيفا، و يجب أن يتخلّص الجميع من الكبت الصوتيّ، أي تحرير الأحبال الصوتيّة في كامل قوّتها، و هذا يستوجب قاعة ذات مساحة كبيرة، و أمام هذا كان من ينادي فينا بضرورة التخلّص من الميكروفونات و ما تبعها إذا شاركنا أمام الجمهور، و نحن 04 منشدين فقط، واحد منهم فردي أي يبقى 03 في الكورال ؟.

لم يكن " يوسف " يحضر دائما، كان يأتي من حين لآخر متأخرا بساعة أو ساعتين، كانت لديه ارتباطات أخرى، ثم أتى " الياس . ع "، و بعض الزوّار من فرق أخرى.

لما شاركنا مشاركتنا الأولى و الثّانية بدأت الأصداء الطيّبة، ممّا دفع بالقائد في فوج " النّهضة " التّابع للكشافة الإسلاميّة الجزائريّة " الطيّب . ب " إلى الحضور ليرى عن كثب ما نفعله، لقد أراد الانضمام إلينا مهما كلّفه الأمر، كانت لدى البعض منا حساسية تجاهه، أتذكر مرّة أنه دخل إلينا من شرفة الغرفة لما لم نستطع فتح الباب له.

تنقلنا عدّة مرّات من حجرة لحجرة في دار الشباب، بيد أنها تبقى غرفا صغيرة لا يمكن العمل فيها إلاّ بشروط خاصّة لا نستطيع تأمينها، ثم انضمّ لنا " عبد الرّزاق . م " لما انسحب من فوج " النّهضة " الكشفيّ، كانت علينا بعض الضغوط من أجل رفض انضمامه لنا، و لكن أخبرني " بلقاسم . ب " أن هذا شأن داخليّ بين أعضاء الفوج، و نحن مستقلّون عنهم فلماذا لا نقبل بانضمامه ؟، و هو من حفظة القرآن الكريم و إمام متطوّع لصلاة التراويح ؟.

" عبد الرزاق . م " هو شقيق " سفيان . م " رئيس فرع جمعيّة " عروس متيجة " الذي وفّر لنا النقل لمّا شاركنا في إذاعة " البليدة " الجهويّة.

نجحت الأفكار التي طبقتها، و قدّمت نتائج مذهلة في مدّة عام واحد، هي ببساطة شديدة أفكار جديدة تطبق لأوّل مرّة في الميدان، مؤطّرة ضمن منظومة معرفيّة تسمى " مدرسة الاختصاص ".

لست مؤسّس هذه المدرسة و لا أعلم من أسّسها بالضّبط، غير أني أعرف شيئا واحدا هو المفصل في ذلك.

حين كنت أبحث عبر شبكة الانترنيت لفت نظري شيء في غاية الأهمية، هناك تشابه في أسماء الفرق الإنشاديّة عبر العالم، عشرات الفرق تسمى " الأنوار "، أو " الإيمان "، " المجد "، أو أيّ اسم آخر، و لكن الشيء الجديد هو مصطلح " جهاز "، شاء الله أن يكون لنا اسم مشابه لنظام إنشاديّ آخر يسمى " أنسام الصّباح "، اسم شاعريّ و رنان لحدّ بعيد، لفظ " جهاز " الذي كان مقرونا به رنّ أكثر في أذني لفترة طويلة جدّا.

كنت أسعى لنفس الفكرة و كثيرا ما خاطبت عناصر الفرقة في ذلك و خاصة " زهير . ح " و لكن دون جدوى.

إتصلت ببريد إلكترونيّ وجدته، فأعطوني ما أذهلني غاية الذهول.

هناك 03 مدارس إنشادية " المدرسة التقليديّة " التي كانت في النصف الأول من القرن 20، ثم " مدرسة التتابع " التي سادت في النصف الثاني من القرن 20 و ما زالت تسود على الآن، ثم مدرسة " الاختصاص " التي أتت بأفكار حديثة في بداية القرن 21، عرفت من " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنية " الذي تأسّس رسميّا سنة 2002 عدّة قواعد في الإنشاد لم يعطها لي شخص آخر، عرفت عالما جديدا محكم التّنظيم مبنيّ على المعلومة ثمّ المعرفة، عرفت الحركات الإنشاديّة العالميّة مثل : " الفجر الأخضر "، " البراعم "، " المقام الجديد ".

بصراحة؛ وجدت نفسي أركن إليهم، هؤلاء من كنت أبحث عنهم، يعطيك شخص ما معلومة قديمة ليس في منزلة من يقدّم إليك معلومات و معلومات حديثة جدّا، و مجانا، هذه القوّة المؤسّسة على المعرفة هي ما ينقصني؛ ما ينقصنا نحن الإنشاديّون.

إبتداء من شهر نوفمبر 2003 أصبحت كاتبا في هيئة " الإقليد " التابعة لجهاز " أنسام الصّباح "، يتلخّص عملي في كتابة النسخ الأوليّة من البحوث الإنشادية ثم أرسلها لتتعانق مع أفكار أخرى، قد لا يظهر عملي مهمّا بالقدر الباهر، لكنه لبنة مضافة إلى لبنات أخرى، في جدار الدّعوة إلى الله.

على هذا الأساس منحوني رتبة " سوار "، هي الرّتبة الإنشاديّة الأولى في سلم من 10 درجات، كان ذلك رسميّا في أفريل 2004.

مشاركة ذات حدين

تبعد مدينة " المدية " بحوالي 100 كم إلى الجنوب من مدينة " الجزائر " العاصمة، أخبرنا " يوسف . خ " أنّنا مدعوّون للمشاركة هناك في حفل من تنظيم " الاتحاد الطلابيّ الحرّ "، هو تنظيم من بين التّنظيمات التي تنشط في الجامعة الجزائريّة، بيد أنّ لديه قاعدة عريضة يستطيع أن يفرغ جميع المدرّجات من الطلبة إن دعا إلى إضراب ما، قلت أننا جاهزون للمشاركة بمجموعة من الأعمال، كنّا ما زلنا في مرحلة " الشّرنقة "، حضّرنا برنامجنا المتواضع الذي احتوى على أنشودة " أ أنساك ؟ " للمنشد و المغرّد " موسى مصطفى "، يؤدّيها المنشد " بلقاسم . ب "، و فعلا كانت هي القنبلة.

صلّينا صلاة الجمعة في المسجد العتيق لمدينة " العفرون " ثم انتقلنا بواسطة حافلة إلى الإقامة الجامعيّة للبنات، أين استُقبلنا أحسن استقبال، أدخلونا مطعمهم و تناولنا لحما مشويا، و مع كل ترحيب تزداد مخاوفي، ما يدريني ما أخبرهم عنّا " يوسف " ؟، كعادته يهوى التضخيم، و ربما جعلنا في مرتبة عليا سرعان ما نسقط منها سقوطا حرّا حين يخطئ أحدنا.

في الطريق توقّفنا في مدينة " شفة " لأخذ " الصّادق الجزائري " معنا، الذي قدّم أنشودة وحده، على كلّ حال تدرّبنا قليلا قبل الدّخول إلى الحفل الذي حضرته بعض الأخوات خصّيصا، إستمرّ في سهرة الجمعة إلى قرابة منتصف اللّيل، كنت مرتديا قميصا أبيض اللّون، مشكلة اللّباس الموحّد دائما تطرح نفسها بقوّة.

قضينا ليلتنا في " دار المعلم "، و لكن من ينام ؟، أمام الأحاديث المتشعّبة و مشاغبة الأصدقاء، نمت ساعتين فقط قبل الفجر، و بعد الصّلاة أعادتنا الحافلة إلى " العفرون "، بعدما كُسر مقبض إحدى الأبواب، يوم السّبت صباحا دخلت إلى المنزل ثم خرجت، لم أقدر على النّوم، أحسست بنشاط غريب فقلت في نفسي سأتجوّل قليلا في المدينة.

كانت هذه مشاركة حاسمة لعناصرنا؛ أظهرت قوّتنا و ما نستطيع فعله، و لكنها كانت الطعم القاتل لنا، إذ سرعان ما استدعونا لحفل آخر لم يكن في الوقت المناسب هذه المرّة، رفضت المشاركة قطعيّا، يجب أن نحسن التعامل جيدا مع كل الدّعوات الموجّهة لنا، الصّيت الطيّب الذي خلّفناه ورائنا سيتحوّل إلى قذارة إذا ذهبنا هذه المرّة، لسنا جاهزين تماما، و إذا كنّا نرغب في مشاركة رائعة كالمشاركة السّابقة فيجب التّحضير الجيّد لها، لا نترك الحماس يأخذنا بعيدا، يجب أن تكون أرجلنا على الأرض دائما، على الأقل كي ننهض بسرعة لو سقطنا.

لم أذهب معهم، ضقت ذرعا بتصرّفاتهم التي تتكرّر معها الأخطاء، و لمّا عادوا لم يخبروني بشيء، سمعت فيما بعد أنها كانت مشاركة متواضعة جدّا، و يا ليتهم اعترفوا بالخطأ، فالمعترف يكاد يصحّح ما ارتكبه من أفعال.

كان " سحنون " يحضّر جديّا كي يخطب إحدى الأخوات من هناك، هي الآن زوجته و أم أطفاله، أما " يوسف " فلديه رابط إيجابي أيضا لا يخرج من هذا قيد أنملة، و لكن العمل عمل و العواطف عواطف، و يجب الفصل بين هذا و ذاك، فالأمور لا تستقيم إلا بوضع حاجز يكون الفيصل بين مشاعرنا و أعمالنا.

شاركنا قبل هذا في مدينة " أولاد يعيش " التي تبعد عن مقرّ الولاية " البليدة " قرابة 10 كم، كانت مسابقة مثّلنا فيها دار الشباب أسوء تمثيل، لم نظهر بالمستوى المطلوب أو المشرّف، رأيت مهندس الصّوت غير مكترث بنا إطلاقا، و ما أفعل أمام الآراء التي وضعتنا في فوهة المدفع ؟.

لم يكن " زهير . ز " مدير دار الشّباب راضيا عن مستوانا، و عليه فإن أيّة طلبات لنا ستقابل بالرّفض، كان يجب علينا أن نبرهن عمليّا على قوّتنا ثم نطلب ما نشاء من تجهيزات.

" زهير " إنسان مثقف دؤوب على المطالعة و هو ما مكّنني من إيجاد جسر تفاهم معه، غير أنه يحبّ النّتائج العاجلة، و العمل الجيّد يستلزم وقتا طويلا نوعا ما.

شهادة ليسانس ... و الواقع المرّ

كان يوما جميلا من أيام الأسبوع، من شهر مارس سنة 2001، كان الرّبيع على الأبواب و الشمس الزاهية الدافئة لم تلبث تلك السنة أن غمرتنا أنا و صديقي " سحنون "، كنا في محطة القطار ننتظر رحلة السّاعة 00 : 10 لمّا فاتحته قائلا أني أريد تحضير شهادة تخرّجي من الجامعة حول الإنشاد، كنت في السّنة 3 طالبا في معهد العلوم الاجتماعيّة تخصّص علم الاجتماع التربويّ، يستوجب علينا تقديم مذكرة نهاية الدّراسة، لموضوع نختاره نعمل على دراسته طوال السّنة تحت إشراف أستاذ يوجّهنا و نحن المسؤولون عن المحتوى.

كانت العادة في الجامعة أن تختار موضوعك بناء على المراجع المتوفرة، و أغلب الطلبة يختارون مواضيع مستهلكة تقريبا، تتكرّر كلّ عام، دون أن يضيفوا إليها جديدا، نفس النّتائج يخرجون بها من دراساتهم، و منهم من ينقل كلّ ما يجد في المراجع حرفا بحرف، لا يهمّه أيّ شيء، و كثيرا ما كانت توجّه لهم الملاحظات تلو الملاحظات دون جدوى، عانى الأساتذة كثيرا من هذه النوعيّة من الطلبة الذين يريدون كل شيء جاهزا، و البعض الآخر كان يبحث عن الأستاذ المشرف المناسب له و هو الذي يختار له موضوعه، أمّا أنا فكنت أنظر للمسألة من زاوية معاكسة تماما، أثارني موضوع الإنشاد، فقرّرت متوكلا على الله أن يكون موضوعي ثم تأتي المراجع من بعد، و لكن موضوعا مطاطيّا لا يفي بما يجب أن تكون عليه الدّراسة المتخصّصة، أردت شيئا متقنا كعادتي و تلك هي مشكلتي، أردت شيئا يصلح أن يكون منطلقا سليما للآخرين و لو بعيدا عن المسلك الجامعي.

إستشرت أستاذا أثق فيه هو السيّد " معطي . ب "، كان يدرّسني ممّا مكنني من لمس قدراته المعرفيّة، كما أنه شخصية طيّبة لا يرفض مساعدة أيّ طالب إن استطاع إليها سبيلا، كما تناقشت مع الأستاذ " بلحسين " حول الفرق الإنشاديّة بشكل عام، و هنا بالضبط أخبرني أنه يجب عليّ التعامل مع فرق للأطفال كي أتخلّص من عصبيّتي.

إنضمّت لي زميلة هي " كلثوم . ش "، من ولاية " الجلفة " حوالي 300 كم إلى الجنوب من العاصمة، و اخترنا أستاذا متمكنا يشرف علينا هو الأستاذ " محمد توفيق . م "، شخصيّة علميّة تضاف إلى قلّة، تكرّم بالإشراف على عملنا المسجّل رسميّا في جامعة " سعد دحلب " في " البليدة " تحت عنوان : " دور الأنشودة الإسلاميّة في تربية المراهق ".

عملنا بجهد كبير و لافت، كوننا وجدنا أنفسنا نشقّ طريقا في غابة عذراء.

إستطلاع خفيف كشف عن صعوبات جمّة تنتظرنا، لا توجد دراسات كلاسيكيّة حول هذا المجال، كما أنّ اتصالي بالفرق الإنشاديّة لم يضف للمسألة شيئا، تجاهلت الأغلبيّة ما طلبته، و كأنّ كلّ فرد يقول في نفسه : " هناك غيري "، كلّها تعمل ميدانيّا فقط؛ للأسف، ليست لها أفكار منهجيّة تؤطر المتعطّشين لهذا النّوع من المعرفة، نعم هو واقع مرّ يعيش فيه الإنشاد، مدرسة " التتابع " مدرسة ميدانيّة فقط، أكثر منها نظريّة، أي أنّها تفتقر إلى الهيكلة النظريّة للأفكار قبل تطبيقها ميدانيّا، خلوّها من إرث ثقافيّ حرم من هم خارج الدّائرة الإنشاديّة من الاطلاع على مجريات الأمور بدقّة؛ يستطيعون من

خلالها قياس كافة التّأثيرات الخارجيّة و الدّاخليّة.

في البداية لم أعرف ما أفعل، ما قمت به مغامرة جازاني الله عليها بأن أدخلني عليه من باب ما كنت أحلم به على الإطلاق، أين أحلامي الدّنيويّة و أين أنا الآن ؟.

ليقبل هؤلاء تشكّراتي على جميع ما فعلوه من أجلي :

- الأستاذ " جيلالي . ف " إمام سابق.
- قيادة فوج " النّهضة " الكشفيّ لمدينة " العفرون ".
- قيادة فوج " مهالي شريفة " للمرشدات لمدينة " العفرون ".
- مؤسّسة " القدس " الإعلاميّة للتّسجيلات السّمعيّة و المرئيّة و لا سيّما السّيد " مبارك ".
- الصّحفيّ " مصعب " من إذاعة القرآن الكريم الجزائريّة.
- القائد " محمد . ب " من فوج " الاتحاد " الكشفيّ لمدينة " موزاية ".
- مدير أسبوعيّة " السّفير " الجزائريّة و الصّحفيّة " أم إخلاص ".
- الدّكتور " بشير . ح " طبيب الأذن و الأنف و الحنجرة.

لقد ساعدني في هذه المذكّرة صديقي و زميلي في الفرقة " عبد القادر . د "، الذي تعب معي كثيرا جدا؛ فهو الذي كتبها على الكمبيوتر حرفا بحرف، و راجعها، كنت أذهب إليه إلى البيت و نجلس بالسّاعات أمام الشاشة، و هو يرقن بحماس كبير و عجيب، ثمّ طبعها في أكثر من 05 نسخ، في 132 صفحة، كنت في المرحلة الأخيرة أنتظره في قاعة من قاعات الجامعة حين دخل و هو يحمل النّسخ جاهزة، و مع ثقله كانت الأمانة على عاتقي ثقيلة جدّا، فله ألف شكر و لأمّه التي أثقلنا عليها، أما " محمد . ز " فقد اهتم برقمنة جميع الجداول وعددها 28 جدولا، و قام المهندس " سيد أحمد . ط " بالتكفّل المبدئيّ بالموقع الإلكترونيّ للمذكرة.

كم هي عدد الأيّام التي ذهبت فيها إلى " سيد أحمد " ؟، و كم هو عدد السّاعات التي قضيناها أمام الكمبيوتر ؟، و ما تجشّم المسكين من أجلي ؟، و أنا ألاحظ تأثير الإشعاعات على عينيه و مخّه ؟.

و إني و إن أكتب هذا؛ فما هو سوى محاولة ردّ جميل أسرني به هؤلاء.

إنّ أيّ دارس لظاهرة ما في أي ميدان من الميادين؛ مُلزم بالتعرّض للإرث النظريّ المكتوب فيها، يجب أن يستطلع أرشيف الأوائل، و أين سيجد هذا الإرث ؟، أ ليس لدى المهتمّين به ؟، و لكن إذا كان هؤلاء المهتمّون لا يهتمّون بالجانب النظريّ الهيكليّ؛ فإنّ المسألة تعدّ خطيرة جدّا، كونها تعدم التّاقل الثقافيّ للأجيال القادمة، معناه أننا نفتقد الإدراك المعرفيّ الذي بواسطته نستطيع الحكم على مسيرتنا.

راسلت عدّة فرق دون جدوى، لم أجد لديهم الزاد المعرفيّ العلميّ، لم أجد الكتب العلميّة في الإنشاد، و وجدت مقابل هذا عشرات الصّفحات بل المئات في مسألة التّحريم و الجواز، و لولا مساعدة صديقي " أحمّد . د " في أن وفّر لي بعض المطبوعات النّادرة في الإنشاد؛ لما استطعت التحرّك مطلقا، ثغرة عظيمة فيما يُفترض أن يكون إحدى الدّعامات في قضية الدّعوة.

كان هذا سببا وجيها لأتوجّه مستقبلا للكتابة في الإنشاد كعلم مستقلّ بنفسه و قائم بذاته.

حين ذهبت لوضع المذكرة وتحديد موعد مناقشتها وجدت الأستاذ " جمال . م " فسأل عن اليوم الذي نراه مناسبا، فقلت : " الأربعاء "، و على بركة الله كان هذا في 2003 في الأسبوع الأخير قبل بداية عطلة فصل الشتاء، بعد ذلك بحوالي 03 أشهر؛ ذهبت إلى مصلحة الدّراسات لأسأل عن شهادة النّجاح المؤقتة التي من المفروض أن تُمنح لنا في انتظار تجهيز شهادات اللّيسانس، فأخبرتني المكلّفة باستقبالنا عن سبب سؤالي عنها ما دامت الشهادات جاهزة، و استلمت شهادتي فعلا بعدما سحبوا مني بطاقة الطالب، و رغم فرحة التخرّج؛ إلاّ أني أحسست بفقدان شيء عزيز عليّ، شعرت و كأني طالب في السّنة الأولى لا أنتمي إلى هذا المكان.

تأسيس فرقة " الغيث " و دور الفنّان " يوسف حسن "

في بداية صيف سنة 2003؛ كنت في قطار السّاعة 00 : 13 راجعا إلى مدينة " العفرون " بعدما أنهيت أشغالي في مدينة " البليدة "، شاء الله تعالى أن ألتقي بالأستاذ " مهدي . ل "، قائد في فوج " النهضة " التابع للكشّافة الإسلاميّة الجزائريّة، فوج مدينتنا العتيق، تبادلنا وجهات النّظر حول الإنشاد و تحوّلاته في القرن الحديث، ثم عرض عليّ تأسيس فرقة لديهم في الفوج، قلت أن لا مانع لديّ ما دام العمل سيأخذ البعد العلميّ الذي بواسطته سنصل إلى المبتغى المأمول، كنت في ذلك الوقت مرتبطا بالإشراف على فرقة " الأنسام " الإسم الجديد لفرقتنا " أنسام الصّباح "، و هذا يعني تقسيم الوقت جيّدا.

كان اقتراحي الأوّل أن يكون أعضاء الفرقة من الأطفال الذين لا يتجاوز سنّهم 12 سنة، كي ينشؤوا على المبادئ الحديثة دون أن أجد لديهم معضلة فكريّة، لكنّ إدارة الفوج أقدمت على إعطائي فئة أكبر عمريّا من الفئة المقترحة، ممّا شكل مشكلة حقيقيّة سرعان ما بدأت تتفاقم مع الزّمن الذي كشف لي أنّ تأسيس فرقة " الغيث " كان ردّ فعل فقط على نجاح فرقة " الأنسام "، إذ لا بدّ أن تبسط فرقة كشفيّة سيطرتها على الأنشطة الثقافيّة لمدينة " العفرون "، بصورة أوسع فأشمل.

لست ضدّ التّنافس الشّريف فهو مفيد جدّا لنا كإنشاديّين، و لكن إذا تحوّلت الأنظار إلى أشياء أخرى فالأجدر أن نصحّح المسار أو نتوقف حتى نعيد النّظر في الدّوافع التي تحرّكنا.

دعوني أشرح لكم باختصار كيف تأسّست فرقة " الغيث " ؟.

أتحدّث الآن عن أحداث جرت في 2003، لم يكن اسمها كذلك في البداية، بل كان الاسم الأول الذي انطلقنا به هو فرقة " الانبثاق "، لم يرق لنا الاسم كثيرا، و حين سألنا القائد " محمد . م " عن رأيه في الموضوع أجاب باختصار أنه يجب تغيير الاسم، لأنّه لا يشي بالهدف الذي نريد الوصول إليه كتحفيز، بل هو عبارة عن ماضٍ لا يريد جلّ النّاس معرفته، و عليه فإنّ الوجهة الجديدة يجب أن تكون مدوّنة في الاسم الجديد، حدث هذا في المكتب الصّغير لإدارة الفوج أمام " أسامة . ح " الذي هو الآن قائد الفوج، و هو شخصيّا من اقترح اسم " الغيث " و لا أعلم كيف أتى به ؟، بعدما كان من المنشدين الأوائل الذين بنيت عليهم هذه الفرقة رفقة " عبد الرحمن . ا "، " سيد أحمد . ح "، " خليل . ب "، و ضابط الإيقاع " توفيق "، " يوسف . ا " و آخرون.

قمت بزيارة أوّليّة ميدانيّة لمقرّ الفوج، الذي كان يقع خلف مكتبة البلديّة مباشرة؛ أين اطلعت عن كثب على الأصوات التي كان النّشاز واضحا فيها وضوح الشمس، في لقاء استطلاعيّ لإمكانيّات الفرقة، حيث كان يتوجّب عليّ أن ألمس واقع الإمكانيّات البشريّة للفرقة قبل شيء آخر، لقد استغرق الأمر أشهرا من التّدريب المتواصل كي تصحّح الأصوات في حين لم أجد مشكلة في الوزن، كنت أبدأ التّدريب على السّاعة 00 : 16 بعد حصّة تدريب فرقة " الأنسام "

التي كان مقرّها في دار الشّباب، أي أنّ المسافة لا تتجاوز 50 مترا، تكفي دقيقتان فقط لأكون في المقرّ الجديد، و تغيّر التوقيت و المكان؛ حتى أننا كنا نتدرّب في المركز الثقافيّ، الذي هو الآن عبارة عن مكتبة تمّ بناؤها حديثا، لكن بقيت مدّة الحصّة واحدة؛ ساعة و نصف، مثلما هو معمول به في مدرسة " الأفكار "، ثم بدأت الضّغوط التي لم أستطع تحمّلها، لقد حدث نوع من الخروج عن الاتّفاق الشّفهيّ المبرم بيننا، إذ اشترطت تفرّغ الأعضاء للإنشاد أي إيقاف جميع الأنشطة الأخرى التي تتطلّب مجهودا صوتيّا كالمسرح، لأنّ هذا قد يؤذي الأحبال الصّوتيّة، لكن ذات مرّة فوجئت بغيابهم عن الحصّة المقرّرة لمشاركتهم في مسرحيّة في مدينة أخرى، أضف إلى ذلك ضغط إدارة الفوج بوجوب مشاركتنا في التّظاهرات المقامة هنا و هناك، ممّا عقّن كلّ شيء حولي.

هذا هو السّبب الثاني الذي من أجله طلبت أطفالا، كي أحضّرهم جيّدا على مهل، و إذا كان الفوج يجب أن يظهر؛ فليظهر بفرقة أخرى حتى تجهز فرقتي، و لنا كلّ الوقت للتّحضير، فهل هذه مشكلة ؟.

إستقبلنا يوما فرقة " الأشواق " من مدينة " بشار "، كانوا في جولة لمناطق الشّمال الجزائريّ، فهاتفت قائدهم الأستاذ " الجوهريّ . ع "، إتفقنا على وقت الزيارة الذي كان يوم الجمعة، كنا ننتظر جميعا في المقرّ لمّا لمحنا أفرادا بعباءاتهم البيضاء في الطريق الرّئيس للمدينة، رحبنا بهم فهم القدوة لنا، تمنّيت لو حضر المنشد " محمّد شعيب "، لكن للأسف الشّديد غاب لظروف قاهرة، على كلّ حال من حضر غطّى على من غاب.

لقد أطربونا بما قدّموه موضّحين فلسفتهم في العمل، تقريبا نحن في مسلك واحد، أمّا التّفاصيل فيجب أن نختلف فيها، و من ذا الذي يتفق معك في جزيئات الجزيئات ؟.

أصبحت ألمس الأهداف الحقيقيّة التي من ورائها تم اتخاذ قرار تأسيس فرقة أناشيد من طرف الفوج، المهمّ أن تكون لديهم فرقة إنشادية مهما كان الثمن و لو كان عملهم لا يتمّ على نهج سليم، أو لنقل وجوب الوصول إلى الهدف من أقصر طريق مهما كان.

خرجت غاضبا من المقر، لأني استنفذت جميع الطّرق السلميّة، كل الأفكار واضحة للطّرفين، و إذا لم نتّفق فليس لسوء تفاهم، وجدت نفسي مع " لخضر . ق " الذي لم يكن معهم في فرقة المسرح و ربما تغيّب فقط عنهم، لقد توقّفت عن العمل معهم نهائيّا لأنّ ظروفا مثل هذه لا يمكن أن تساهم في بناء فرقة محترفة مهما كانت الإمكانيّات المقدّمة لها، حين اتّفقت مع " المهدي " الذي هو الآن أستاذ جامعيّ؛ على إنشاء فرقة إنشاديّة محترفة؛ كانت فرقة " الأنسام " في أوج عطائها، أراد تكوين مجموعة مثلهم و أحسن، و لكن ذلك يقتضي تضحيات جسيمة و جهودا نبذلها إخلاصا لله وحده قبل كل شيء، ثم الأخذ بأسباب العلم، من قال أنّ النجاح يأتي من فراغ ؟.

حين أوقفت تعاملي نهائيّا مع إدارة الفوج؛ كان يجب توفير مشرف جديد لفرقة " الغيث "، مشرف يكمل ما بدأته بأيّة طريقة كانت، و هنا تمّ الاتفاق مع الفنّان " يوسف حسن " على إكمال مشوار الفرقة التي لا يجب أن تتوقّف مهما

كانت التكاليف، و لا أعرف كيف اتصلوا به ؟، " يوسف " منشد قديم و قدير في فرقة " الورود " لمدينة الورود " البليدة "، كان بحاجة إلى فرقة جديدة بعدما حدثت بعض المشاكل مع فرقته القديمة ككلّ الفرق التي لا تعمّر طويلا، و في نفس الوقت كان فوج " النّهضة " بحاجة إلى شخص يوفر للفرقة الشّهرة القياسيّة المطلوبة، و بهذا التقت المصلحتان.

غير أن " يوسف " لا يعمل وفق الفكر الإنشاديّ الحديث، أي ليس من مدرسة " الاختصاص "، ممّا أدّى على نكوص الفرقة إلى مدرسة " التتابع "، هناك مقاييس متعارف عليها عالميّا كي نصنّف أيّ منشد في خانة أيّة مدرسة هو، فإذا استعمل آلات العزف الموسيقيّة غير الإيقاع فليس من الإنشاد أصلا، بعدها يوجد شيء اسمه " العقيدة الإنشاديّة "، المكوّنة من 03 أقسام : دينيّة و فكريّة و فنيّة، ثمّ إنّ مبادئ الفلسفة الإنشاديّة الحديثة 10 مبادئ؛ من بينها التجمّع الضمنيّ، الدّائرة الكبرى، الزاوية، العقل المتحد، التغيير المستقبليّ ... إلخ، يجب أن تظهر في العمل.

راحت المشاركات تتكاثر و تعلو معها أمواج الشّهرة تتقاذف شباب الفرقة الفتيّة، الشّهرة التي كنت ضدّها من البداية، لا خروج للعلانية إلا عندما نكون قد جهّزنا أنفسنا جيّدا، نظريّا و ميدانيّا، نحن دعاة إلى الله و الدّاعي يجب أن يرتّب منزله من الدّاخل قبل الاهتمام بالخارج.

هذا هو البروتوكول المعمول به في مدرسة " الاختصاص "، و لكنّ العجلة خلقت مع الإنسان، و هي سبب دماره.

تمت رسكلة الفرقة بسرعة و دمجت في فنّ " التّغريد "، ثم سجّلت ألبوما مع المشرف الجديد، في الحقيقة هو من سجّل ألبومه معهم؛ أمّا هم؛ فبقوا عاجزين إلى الآن عن تسجيل ألبوم رفيع خاصّ بهم يعكس مستواهم المقدّر بأكثر من 10 سنوات، ليس هذا كلامي و لا تحليلي للميدان؛ لقد سألت بعضهم عن سبب عزوفهم عن التّسجيل، فقالوا جميعا أنّ الألبوم ليس من أولويّاتهم، لم أستوعب الفكرة جيّدا، كيف يُعقل لفرقة ما ألاّ يكون التّسجيل من أولويّاتها ؟، هل المشاركات هي ما يقصدون ؟، و إن يكن؛ فإلى متى ؟، يبدو أنّ شيئا ما ليس على ما يُرام.

ما كان " يوسف حسن " مؤسّس فرقة " الغيث " أبدا، و أتحدّى أيّ شخص يزعم العكس، لمّا استدعي للإشراف وجد كلّ شيء جاهزا تقريبا كالأصوات التي تركتها متناسقة حين استقلت، رغم ما يقال هنا و هناك و تصريحات البعض منهم، التّاريخ تاريخ و لا يمكن إخفاؤه أبدا مهما حاولنا ذلك.

لقد قالوا مرّة أني أتكلّم كثيرا فقرّرت أن أسكت و أترك الميدان يتكلّم، و لكنّ لا يجب أن تُزوّر الحقائق.

أكمل " يوسف " ما بدأته على طريقته الخاصّة، التي رآها مناسبة له، كنت أحضّر لتأهيل الأفراد فكريّا كي ينهضوا بالإنشاد الحديث، لا أن ينشدوا و يغرقوا في العمل الميدانيّ دون وجود أفكار هيكليّة تؤطرهم، و تنقل رؤيتهم واضحة للآخر أو للجيل القادم، نسّقت مع " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة " على تأسيس جهاز جديد في الفوج الكشفيّ يعمل وفق القوانين الداخليّة للفوج اسمه " مجموعات المهد الإنشاديّة "، تحت الرّعاية لأني لم أكن ضابطا إنشاديا آنذاك و لا أستطيع إنشاء جهاز وحدي، على أن نرقى جميعا بالعمل على تأسيس فرق إنشاديّة جديدة داخله، اليوم بدأنا بفرقة واحدة ، ثمّ

نتوسّع شيئا فشيئا، و كلّ هذا يستوجب ما يلي :

- رفع القدرات العامّة و الخاصّة للأفراد، بزرع أفكار جديدة في نسق فكريّ قديم.
- تجنيد كلّ من لديه استعدادات لتقبّل الفكر الإنشاديّ الحديث ليكون إنشاديّا من طراز رفيع.

لكن كلّ شيء تلوّث بحبّ الظهور على مرور الأيام، تلك الأهداف التي حرّكتنا في البداية لم تكن مشتركة بيننا فيما يبدو، و حين تختلف أهدافنا فلا مجال للسّير في طريق واحدة.

توقف " يوسف " عن العمل مع الفرقة، قالوا من التقيتهم من الأعضاء أنّه مشغول و أنه يساعدنا من حين لآخر، ثمّ بدأت أسمع بين الفينة و الأخرى عن خروج عناصر و انضمام عناصر جديدة، و لا أعرف ما حدث للمجموعة سوى أخبار تتناقل هنا و هناك، ثم علمت أنهم غيّروا الإسم إلى فرقة " أجيال " لكنّي كنت أعلم أنّ الهدف المسطّر من البداية سيدمّر الجميع بمخلّفاته، لأنّ الطّريق المختارة لم تكن طريقا صحيحة أبدا، لديهم أسبابهم الخاصّة على كلّ حال؛ لكن ميزة العمل هي التي تمنح الشهرة، لا أن نسعى إليها دون اتخاذ أسباب تؤدّي بالضرورة لها.

و هذا ما كنت أحذر منه دائما و ما زلت أحذّر منه، إيّاكم ثمّ إيّاكم و الجري وراء الشهرة و المال و ما سوى ذلك من تفاهات هذه الحياة، الإخلاص لله هو سرّ النّجاح ثم تأتي الشّهرة بأعمالك المتميّزة، و المال مقابل أتعابك، السّمعة الحسنة؛ فالدّنيا كظلّك إذا تبعته هرب منك، و إذا لم تعره اهتماما كان بك لصيقا، فتخلّص منه إن استطعت.

كتبت هذه الفقرات باختصار للتاريخ كي يتّعظ الإنشاديّون و لا يقترف أحدهم خطأ ما زال مكرّرا عبر السّنوات، و إذا كان الجميع يريد التّعامل مع شخص لا يحدث المشاكل؛ فعليهم مقاسمة أفكاره منذ البداية.

أعترف أني تعاملت مع أناس طيّبين لحدّ بعيد؛ و لكنّ النجاح يتطلّب منهجا صارما في العمل، و الدّنيا بتعقيداتها لا ترحم أحدا.

مثلا " يوسف حسن " لديه أسلوب يميل كثيرا لفنّ " الحوزي "؛ هذا ما يجعله أهلا لتطعيم الإنشاد به، يمكن له أن ينجح في أسلوب الأنشودة ذات الطابع الحوزي، بما يمتلكه من صوت يؤهّله لذلك، النجاح هدف صعب المنال، يجب أن ندرك جيّدا مؤهّلاتنا التي هي في الحقيقة إمكانيّات، سيحاسبنا الله إن فرّطنا فيها.

تأسيس فرقة " الإيمان " و محاولة تكوين المشرفة " سميّة "

كنت أتردّد على مقرّ فوج " النّهضة " من حين لآخر بحكم إشرافي على فرقتها، و كان المقرّ على ضيقه يضمّ فوجا آخر خاصّا بالنّساء، ينشط يوم الإثنين على اعتبار أنّ هذا اليوم يتعطّل فيه التّلاميذ عن الدّراسة مساء، كان حضور عضوات هذا الفوج مذبذبا في نظري، ثم عرفت أنّ لقائدته انشغالات كثيرة، المهمّ أنها كانت توفّر الحدّ الأدنى من الخدمات.

أخبرت القائد " سمير . ش " آنذاك عن نيّتي في فتح فرقة إنشاديّة أخرى في هذا الفوج النسويّ، لديهنّ منخرطات كثيرات و لا يمكن أن نتغاضى عن هذه القوّة البشريّة، فأخبرها فوافقت بترحاب شديد مباشرة.

بدأنا أوّل حصّة خصّصناها للتعارف، كان يجب علي أن أتعرّف على عضوات الفرقة الجديدة، و لا سيما إمكانياتهنّ الصوتيّة، أهدتني القائدة تذكارا، هن 33 عنصرا، ثم فجأة تقلّص العدد إلى 14 فقط، علمت بعد فترة أنّ بعض الأولياء رفضوا أن تتعلّم بناتهم الموسيقى، و أنهم أرسلوا بهنّ عن عمد إلى هذا الفوج ليبتعدوا بهنّ عن أيّة تأثيرات ثقافيّة غير مرغوب فيها.

لم أكن أستاذ موسيقى في يوم من الأيام، سوء الفهم لوضعي هذا هو ما حرم أكثر من نصف المجموعة من نشاط هن أحوج ما يحتجن إليه، أتكلّم عن فترة زمنيّة تعود إلى سنة 2003، هذا العقد من بداية القرن 21 هو بداية نموّ الأفكار الحديثة في الإنشاد، و بطبيعة الحال؛ هناك من سيعارضها، كما هناك من أرسل بابنته إلى فوج كشفيّ كي يأمن عليها غوائل الزمن.

كنّا نتدرّب على سلّم " دو " الكبير، في نفس القاعة التي كانت لفرقة " الغيث "، لقد أزعجنا روّاد المكتبة كثيرا و إن تحمّلوا بالصّبر، هكذا هي طبيعة العمل لدينا، تمارين من أجل تقوية الصّوت، هذه التمارين مفيدة جدّا للأحبال الصوتيّة التي يجب أن تزداد قوّة و مرونة، أي نخرج بها من طبيعتها الخامّ العادية إلى إمكانية تأدية أيّ صوت مهما كان نوعه، و فعلا كانت النّتيجة بتوفيق من الله رائعة.

كنت أرتاح كثيرا حين أكون معهنّ، أحسست أنهنّ أسرتي الثانية، و لا سيّما حين تشعر كلّ واحدة بما أشعر به، كنت أرى حبّهنّ للإنشاد في تصرّفاتهن، و حتى في التمارين الصّعبة كانت غياباتهنّ قليلة.

لا أعلم الآن ما الحال التي عليها هؤلاء ؟، لم أرهنّ منذ سنوات، و أعتقد أنهنّ الآن في الجامعة أو ربما تخرجت بعض العضوات.

هذه أسماء عناصر فرقة " الإيمان " : " نور الهدى . م "، " ماريا . م "، " هاجر . س "، " فلّة . ب "، " نوال . ر "، " سامية . ا "، و أختها " إيمان "، " صابرينة . ع "، " إبتسام . ب "، " كوثر . د "، و أختها " ريان "، " آمال . ح "، " نور الهدى . ق "، أخت المنشد " لخضر " من فرقة " الغيث "، " إيمان . ب "، " بشرى . م "، 05 منهنّ كانت لديهنّ مقدرة تولّي

منصب الفرديّ، كما كانت معنا " آسيا . ح " ابنة إمام المسجـد العتيق لمدينة " العفرون ".

كنت محلّ ثقة من قائدة الفوج، إذ كانت أحيانا تتركني مع هؤلاء البنات أعمل معهن و تنصرف هي لشؤونها، و لمّا أكمل العمل في تمام السّاعة 00 : 16 أغلق الباب مقدّما المفتاح لمنشدة من البنات توصله لها إلى المنزل.

أوّل أنشودة حضّرتها حملت عنوان " فلسطينيّ "، أتقناها إتقانا، و نفذنا المخطط " الكلاسيكيّ " كمخطط تموقع، أخذت المنشدة " نور الهدى . م " دور الفرديّ، كانت تجيد التمثيل الصّوتيّ لدرجة مدهشة، وأحيانا كانت تتغيّب عن الحصص، كما أني كنت أراها تحضر دائما برفقة صديقتها " صابرينة . ع "، أما " هاجر " فيبدو أنها كانت من بعض المشاكل في المنزل، لقد أرادت أخذ دور الفرديّ في أنشودة " يا ربّاه يا غوثاه "، التي نفّذناها في مخطّط " الزّوجي الهلالي "، فأكّدت على وجوب حضورها للتّدريب مرّة في الأسبوع فقط، لم أطلب شيئا كثيرا، يجب عليها أن تعطي لأحبالها الصّوتيّة الفرصة اللازمة للتطوّر الصّحيـح، أما غير هذا فلا أقدر أن أفعل لها شيئا، لقد كان لديّ عنـاصر مدهشة حقا مثل : " نـوال . ر "، " سامية . ا "، كنت أخطّط لأعطي " نوال " منصب الناطقة الرّسميّة باسم الفرقة لتمكّنها من الاتّصال مع الآخرين بطريقة تنمّ عن مقدرتها في إيصال أفكارنا للغير، أذهلتني طريقة كلامها و كأنّها امرأة بالغة.

أجريت مرّة اختبارا حصلت فيه 07 عناصر على نقاط عالية، منهن 04 حصلن على العلامة الكاملة، فكانت الجوائز شريطي كاسيت لكل واحدة، كانت الأناشيد آنذاك تسجّل على أشرطة الكاسيت قبل أن تتحوّل الآن إلى الأقراص المضغوطة " CD "، كنت قد اشتريت هذه الجوائز من محلّ من مدينة " موزاية "، التي تبعد عنّا حوالي 05 كيلومتر إلى الشرق، من صديق لي اسمه " محمّد " يملك محلاّ لبيع أشرطة الكاسيت الخاصّة بالأناشيد و القرآن و الدّروس.

لا أعلم كيف صبرت البنات معي طوال تلك المدّة ؟، كنت أرى الحبّ جليّا في عيونهنّ و تصرّفاتهنّ، هو الحبّ الذي رفعنا الله به و ما زال يرفعنا، و لله ما أعطى و له ما رفع.

أتذكّـر حين طلبت رأي المنشد " عمر عبد الغنيّ " منشد فرقة " الأنوار " الجزائريّة في فتح فرقة للبنـات الصّغيرات، قال لي : " دعك من ذلك، سيتزوّجن و يتركونك وحدك "، لم أكترث لرأيه كثيرا، كان يكفيني أن تعلّم إحداهنّ الإنشاد لابنها أو لابنتها، و كيف سيكون ذلك إن لم تكن هي أصلا لا تعرفه ؟!.

في زلزال ماي 2003 كان الجميع مذهولين، أوّل مرّة تهتزّ الأرض بتلك الشدّة و لمدّة طويلة، رغم أنّ الجزائر معروفة بنشاطها الزلزاليّ منذ القدم، سبق و أن اهتزت الأرض بقوة فاقت 6 درجات على سلّم ريشتر، هذا المقياس الذي يلعنه البعض لأنه يذكرهم بالمصائب و الآلام، يذكرهم بفراق الأحبّة و الأصدقاء.

كانت الغيابات ملاحظة و لم يعلّق أيّ أحد على ذلك ما دام السبب معروفا، فقد خلّفت هذه الهزة ضحايا و أناسا بلا مأوى، إضافة إلى الهلع الذي أثارته، كنت في المنزل أنتظر صلاة المغرب حين بدأت الأرض في الاهتزاز، قلت أنها ستتوقف مثل العادة، و لكنّها زادت في الشدّة و طال الأمر، ثم بدأت النساء في الصّراخ، و بكى الأطفال، لم ينم منا أحد

في تلك اللّيلة، أمّا بالنسبة للهزّات الارتداديّة فحدّث و لا حرج، قرابة شهرين و نحن نهتزّ مع كلّ هزة، لم يمت أو يجرح من الفرقة أحد و هذا هو المهمّ، و لكن تذكارا من الله شيء مرحّب به دائما.

شخصيّا لم أهتم كثيرا بالزّلزال، لا يعني لي أكثر من وسيلة نقل إلى العالم الآخر، قد لا تكون مريحة و لكنّ الأساس ما نأخذه معنا في الرّحلة لنقابل به من أرسل لنا الزّلزال، كاد البعض يموت هلعا، قال أحدهم أنه خائف كثيرا، قلت في نفسي : " يبدو أنّ أفعاله ليست على ما يرام، لماذا لا يوكل أمره لله و انتهى ؟، إذا بقي هكذا سيموت ألف ميتة قبل أن يصل إلى العالم الآخر "، سمعت عن أناس ألقوا بأنفسهم من الطوابق العليا، كفّت الأرض عن الاهتزاز و تمّ نقلهم إلى المستشفى بذراع محطمة أو رجل مكسورة.

لم يبدأ نشاطي في هذا الفوج إلاّ بعد مرور شهر جانفي و بداية شهر فيفري، و عليه؛ فإن ذلك يعدّ متأخرا، قطعتها عطلة الصّيف التي كان لزاما عليّ الانتظار حتى تنقضي و يبدأ موسم كشفيّ جديد.

لم نبدأ في الموسم الجديد إلا في نوفمبر 2003؛ أي متأخرين عن الموعد المعتاد الذي من المفروض أن يكون في شهر سبتمبر، أرادت قائدة الفوج أن نعيد اختيار عضوات الفرقة من جديد، خاصّة و أننا سنستقبل منخرطات جديدات، بينما أكدت على ضرورة الاحتفاظ بالعناصر القديمة، من المفروض أن أكمل ما بدأته، لا أن أبدأ في كلّ مرّة من البداية، فأيّ حصاد سأحصد ؟.

كنت أعمل دون أية آلة إيقاعيّة طوال المدّة التي قضيتها مع هذا الفوج، و أمام نقص الإمكانيّات المادّية و البشريّة؛ كان عليّ أن أتولّى كلّ شيء بنفسي، حسب طاقتي، لم تصبر قائدة الفوج على المدّة التي حدّدتها لنخرج بسلام من مرحلة " الشرنقة "، فنقص عدد العناصر أثّر على نشاطها ككلّ، إذ يجب أن تشارك في التّظاهرات المقامة هنا و هناك، و بماذا تشارك ؟، بفرقة لم تجهز بعد لا يتجاوز عدد عناصرها الرقم 12 ؟!.

عادة ما تكون الأنشطة التي يشارك بها فوج المرشدات أنشطة ذات طابع نسويّ، أي وجود رجل معهم يمكن أن يؤدّي إلى حساسيّة ما، و على هذا؛ بات من الضروريّ بما كان أن تشرف على عمل الفرقة مشرفة أفضل من مشرف، كي لا أكون في حرج إذا تواجدت معهنّ.

طرحت فكرة تكوين مشرفة تختارها قائدة الفوج تنوب عنّي في المشاركات و تخلفني إذا غادرت، فقدّمت لي اثنتين و ركّزت على واحدة هي " سميّة . ب ".

" سميّة " فتاة حيّية، كنت ألاحظ ذلك في نظراتها و تصرّفاتها، كنت أبلغ من العمر آنذاك 25 سنة، بينما كانت هي تصغرني بحوالي 05 سنوات في المقدّر أو أكثر، كانت حريصة على استيعاب ما أقول لها، و لكن بدت العمليّة ثقيلة، و أنّها ستأخذ وقتا كبيرا، و خاصّة و أننا نحضّر للمشاركة الأولى في 05 جويلية 2004.

بسبب " سميّة "؛ لمعت في ذهني فكرة الكتب المتخصّصة في فنّ الإنشاد، و لكنّ المشوار بدا ضبابيّا نوعا ما، ما كنت أعرف ما الذي أريده بالضّبط، هل هي كتب لعامّة الناس ؟، أم كتب للمقرّر الإشرافي فقط ؟، على كل حال استمرّت الدّروس مساء يوم الاثنين ثم شرعت في التّذبذب بسبب الاختبارات، أتذكر غياب " سميّة " مرّة لحضورها جنازة المغفور له الشّيخ " محفوظ نحناح "، تصرّف أغضبني قليلا، لأني لم أكن على علم بأنها ستذهب، و ليس لدينا وقت.

موازاة مع هذا تمّ تحضير كل شيء؛ مخطط التموقع حتى عمليّة دخول العناصر إلى قاعة الحفل، غير أن تأثير القـائد " الطيب . ب " أدّى إلى انهيار الفرقة بمشاركة فجائيّة لم تكن محسوبة العواقب.

كنت قد استقلت من فرقة " الغيث " و تولّى " يوسف " مهمة الإشراف عليها مكاني، و راح يشارك في كل مناسبة يراها استراتيجية، و أمام كثرة المشاركات يدخل عنصر الأولويّة، و أمام مسألة دفع الحرج يقع توفير فرقة أخرى تشارك مكان التي وُجّهت لها الدّعوة، رفضت الفكرة من أساسها، لم نزل في مرحلة " الشّرنقة "، و أيّة مشاركات تُعتبر مرفوضة مهما كانت قيمتها، كنت في المقرّ حين أتى " الطيّب " ليقترح على قائدة الفوج مشاركة فرقتنا بدل فرقة " الغيث "، لأنّ هذه الأخيرة ستشارك في مكان آخر، لم نكن جاهزين تماما، و لم أشأ التهوّر بإقحام البنات في مشاركة فجائيّة لا نعلم مصيرها، لكنّه أصرّ علينا و بسّط المسألة فرضخت أمام رغبة القائدة مكرها، لم أرتح للمسألة؛ لأنّ كلّ المعطيات تؤكد الفشل المسبق :

- غياب تغطية إيقاعيّة ممّا يجعل الجانب الجماليّ مقتصرا على الأصوات فقط.
- غياب الميكروفونات ممّا يجعل المنشدات يعتمدن على قوّة أصواتهنّ.
- نقص العدد ممّا يجعل الضغط يتزايد على كلّ واحدة، و أيّ تلعثم سيبدو جليّا.

قلت للبنات أن يذهبن مباشرة إلى الابتدائيّة التي سيقام فيها الحفل، تقع في حي " بني مويمن " على تلّة بارتفاع 200 م على سطح البحر، و تبعد حوالي 01 كم عن مقرّ التّدريب، و أنا بدوري توجّهت صباحا مباشرة إليها لأجد البنات أمام مدخلها، دخلت و أوعزت للحارس أن يسمح لهنّ بالدّخول لنقوم بالتّسخينات، و مثلما توقّعت تماما؛ ظهرنا بوجه شاحب جدّا، تلعثمت " نور الهدى . م " في أنشودة " فلسطينيّ "، ممّا أفقد العمليّة رونقها، و لم يكن الحضور بالوجه الملائم، بعض الأستاذات و التّلاميذ، و كأن القضيّة كلّها حفل مصغّر أُقحمنا فيه رغما عن إرادتنا، أحسست أنّ هذه المشاركة طُعم لإثبات فشلنا أمام الجميع، و حين واجهت قائدة الفوج بكلّ التّفاصيل قالت : " من المفروض أنّك أنت القائد و أنت من تقرّر ".

كنت غاضبا جدّا بسبب هذه الفوضى التي أسقطت كلّ شيء رغم تحذيراتي المتكرّرة، و هكذا ببساطة شديدة تنصّل الجميع من المسؤوليّة، لأحمل أنا الأسى و الألم، فلو قلت : " لا " لقالوا : " ديكتاتور يريد فرض سيطرته علينا "، إذا قلت : " نعم "، و كأني أمضيت بيدي قرار إعدام الفرقة، ثم فاجأتني أمام القائدات بإنهاء الموسم الكشفيّ قبل الموعد المحدّد بدعوى أنها تعبت كثيرا هذه السّنة، معناه ببساطة أننا لن نشارك في حفل 05 جويلية الذي نحضر له منذ البداية.

إذن ما فائدة التّدريبات ؟، و الضّغوط المتواصلة ؟، و تكوين مشرفة ؟؟؟.

خرجت مباشرة من المقرّ و لم أعد إليه أبدا، و لا أعلم ما الذي حدث لهذا الفوج الكشفيّ، و لكنّي أعلم أنّ صرامتي في العمل تغضب الآخرين.

كنت أدخل مقرّ الفوج؛ فأجد عددا من القائدات حولها، معنى ذلك وجود تقسيم عمل يخفف الضّغط عن المحور، و لكن الواقع شيء آخر، مشكلتنا التّخطيط الذي يشترك الجميع في تنفيذه، و لله في خلقه ألف شأن.

أمّا بالنّسبة للبنات؛ فكنت نادرا ما ألتقي بالبعض منهنّ : " سامية "، " نور الهدى . م "، لم يسألن كثيرا عن سبب التوقّف، ربما اعتبرن الأمر عاديا، كانت " نور الهدى " تأتي إلى المكتبة البلديّة لإنجاز بحوث أو للمراجعة، و كنت ألتقي بها حين أكون هناك مع أمين المكتبة الأستاذ " محمّد "، أساعده قليلا عندما يكثر عليه الزوّار، و لا سيما في مساء يوم الثلاثاء؛ في غياب عمّال يخففون عنه مشاق العمل.

لا أستطيع أن أنسى " نور الهدى "، هي مثل " سهام " خُلقت لتنشد، ذات يوم حضرت إلى المكتبة للقيام ببحث عام حول السّلام، لقد اشترطت عليهم الأستاذة كتابة المراجع التي نهلوا منها المعلومات، كانت حائرة لا تدري ما تفعل مع صديقاتها، طلبت مهلة أسبوع و سيكون كلّ شيء جاهزا إن شاء الله، و فعلا أتت أسبوعا بعد ذلك مع أختها التي ما زلت أذكرها إلى الآن، و أخذت العمل، كان ذلك في شهر فيفري.

و حتى في فترة توقف الفرقة؛ كنت أرسل لهنّ ما أستطيع الحصول عليه من أقراص مضغوطة تحوي بعض الأناشيد المختارة، لم أشأ أن يتوقّفن عن الاستماع لهذا الفنّ الذي ضحّينا جميعا من أجله، أعطيت مرّة " هاجر " قرصا حوى أكثر من 120 أنشودة، من يعلم ؟ لعلّ الله يعيد أمجاد الماضي حين يأذن.

" شبكة المجرّة الإخباريّة " و قضية " الصّادق الجزائريّ "

كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار إلاّ قليلا في يوم من أيام الصّيف الذي جاء هذا العام باكرا بحرارته غير المعتادة، تلقّيت مكالمة هاتفيّة من صديقي القديم و صديق فرقة " أنسام الصّباح " الأستاذ " محمّد الصّادق . ب "؛ بدا فيها متأثّرا كثيرا، و من خلال لهجته و صوته المضطرب عرفت أنّ خطبا ما حدث له.

للقصّة بداية، كنّا في فرقة " الأنسام " نستقبل ضيوفا من حين لآخر يرشدوننا نحو الطّرق المثلى للعمل، إستقبلنا مرة ممثلا عن فرقة إنشاديّة لمدينة " أولاد يعيش "، أمتعنا بصوته الشجيّ كما أخذنا منه بعض النّصائح الثّمينة، ذات يوم أخبرنا " يوسف . خ " عن شخصيّة فريدة من نوعها، موسوعة إنشاديّة متحرّكة، هو " محمّد الصّادق " المعروف في الأوساط الإنشادية باسم " الصّادق الجزائريّ "، حضر في بعض الحصص التي تدّربنا فيها و استفدنا من آرائه، ثم لمّا شاركنا في مدينة " المدية "؛ ذهب معنا بطلب من " يوسف . خ "، ثم سمعنا أنه انتقل إلى الإمارات العربية المتحدة، لينقطع كل شيء بعدها، و لكن نشاطه عبر الإنترنيت لم ينقطع، كان مراقبا للمنتديات المهتمّة بالإنشاد، كما كنت أطّلع على بعض كتاباته.

وصلني ذات يوم بريد إلكترونيّ من " شبكة المجرّة الإخباريّة " يطلبون رأيي بصراحة شديدة و إجابة واضحة لا تحتمل أيّ تأويل عن السّؤال التالي : هل صحيح أنّ الأستاذ " الصّادق الجزائريّ " أسّس معكم فرقة " أنسام الصّباح " التي تُعرف الآن بفرقة " الأنسام " ؟.

كانت إجابتي واضحة بالنفي، مضيفا أننا كنا 05 أعضاء حاضرين في اجتماع التّأسيس.

لمّا اطّلعت على جملة ما أُرسل لي؛ وجدت ما كُتب في بعض المنتديات آنذاك من ادّعائه أنّه كان من الأعضاء المؤسّسين، أخبرني في مكالمته العاجلة أنّ هناك من استغلّ حسابه و وضع معلومات غير صحيحة باسمه، لم يتّهم أيّ أحد و لا أستطيع اتهام أيّ أحد، لكن الضّرر الذي لحق به كاد يؤدّي بسمعته الطيّبة إلى الهاوية، و يحدث فتنة رهيبة في العائلة، لولا رحمة الله التي تداركت الوضع، تدخّل المهندس " مصطفى . ا " لدى " شبكة المجرّة الإخباريّة " في الوقت المناسب، لم أستطع فعل شيء يُذكر، أحسست أنّ شهادتي استُعملت في غير موضعها، و بعد مرور مزيد من الوقت؛ بدا أنّ " الصّادق الجزائريّ " كان ضحيّة نيّته الطيّبة، بحيث وضعه الجاني في موضع الشّبهة غصبا عنه، ثم تركه يواجه مصيره أمام النّاس، فإذا نُقض كلامه اتهمه الناس بالكذب، و إذا سُكت عنه؛ فالله وحده يعلم ماذا كان يخبّئ له الفاعل.

ما زلت إلى الآن أتذكر تدخّلاته المصوّرة في قناة الشارقة، تلك العبارات الرّنانة و الأسلوب الهادئ الممزوج بنوع من الجرأة، هو شخصيّة و يبقى شخصيّة إن شاء الله و لا أزكي على الله أحدا.

هو صديقي و ما زال صديقي، فليغفر الله لمن أراد تأجيج الوضع.

برنامج " عفيف " و كواليس بناء " النّظريّة الاحتوائيّة "

إذا كنت تحبّ عمليّة التحرير فحاول أن تحبّ المحرّرين، لأنّ أفعالهم شفيعة لهم عندك مهما فعلوا.

في يوم 20 أفريل 2005 أكمل " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة " نظريّة جديدة تحوي جميع الفنون الغنائيّة غير الإنشاد، أسماها " النظريّة الاحتوائيّة "، لا أستطيع شرحها لكم بالتّفصيل فهي ما زالت من أسرار الدّعوة، و لكن أستطيع إعطائكم بعض الخطوط العريضة منها.

أوّلا و قبل كل شيء؛ تذكرون أني أخبرتكم أني كنت مهتمّا بفنّ " الرّاي " ؟، و أني كنت أسعى لتطويره ؟، و تمنّيت لو كان الفنان " حسني " رحمه الله تعالى منشدا، و أني كتبت ما يزيد عن 300 أغنية ؟، أهّلني هذا إلى التعرّف عن كثب على كواليس هذا الفن، و استطعت بقدرة الله أن أتحكّم في بعض النقاط الجوهريّة التي تجعل من فن " الرّاي " فنا محبوبا لدى الشباب، ليس لأنه يتناول المرأة كما يتوهّم البعض؛ فهناك فنون غنائيّة أخرى قضيّتها الأساسيّة المرأة و لا تجد رواجا كبيرا، إذن القضية أكبر.

كانت قضيتنا أن نحتوي كل الأحاسيس التي يثيرها فنّ " الرّاي " وفق نظرة إيجابيّة، و مثلما نحتوي هذا فإننا نحاول احتواء كلّ ما تثيره الفنون الغنائيّة الأخرى، هذا هو شرح " النظريّة الاحتوائيّة " باختصار شديد، حيث كل فنّ غنائيّ له جمهور يخاطبه؛ فلو حلّلنا ماهية الدّوافع التي تجعل هذا الجمهور يقبل على هذا الفنّ الغنائي؛ أمكن لنا التحكّم بكلّ شيء فيه، ثم نوجّهه وفق رؤية إيجابيّة، فإبراز النقائص لن يفيد بقدر ما يضر.

تمّت دراسة بعض الفنون الغنائيّة و إعطاء تقارير و نماذج عمّا يمكن فعله بشأنها، فكانت الآراء متفقة على استغلال كل شيء كطابع فقط شكليّ، يكون الظاهر شيء و الباطن شيء آخر، مثلا؛ يتمّ صنع أنشودة تشبه فنّ " الحوزيّ "، " الرّيقي "، " الجاز "، " الأندلسيّ "، " البلوز "، " الكاونتري "، " البوب "، " الرّوك أند رول "، كانت فكرة ثوريّة إلى حدّ كبير، لا أعلم سبب توقيف كل شيء فجأة، كانت الخطّة المبدئيّة تتمثل في التّرويج للنظريّة دون الكشف عنها، كي لا ينتبه أيّ أحد، أرادوا التركيز على إبراز النتائج و ليس على المنهج.

الإستبرق " ناجي . ك " هو مهندس هذه النظريّة الحقيقيّ، لقد حرّك كلّ البيادق التي كانت في يده من أجل الخروج بهذه الفكرة، أمّا نحن فكنّا ندرس الميدان بعمق، ثم تأتي الخطوة التالية؛ و هي أكثر حساسيّة من سابقتها، الترويج لمنشدين يحملون هذه الأفكار و يقدّمون للجماهير مكان روّاد الفنون الغنائيّة الحقيقيّين، أمّا عن الكيفيّة فالله أجلّ و أعلم، سمعت عن ردود أفعال إيجابيّة و لكن متأكّد أنا أنّ كلّ شيء توقّف إلى إشعار آخر، معنى ذلك أنّ شيئا ما حدث و لا أعلمه، فكيف يُعقل أن يتوقّف هذا البرنامج بعدما اشتغل فيه ما يقارب 15 فردا ؟، كلّهم ضبّاط إنشاديّون، لا يمكن أن يتعرقل ما تعب من أجله الكثير لسبب تافه.

هناك الكثير ليفسّره هذا الرّجل.

تأسيس جريدة " أوميغا "

ترعرعت في بيت يهتمّ كثيرا بالفنّ الهادف لترقية المجتمعات، حاصلة على درجة جامعيّة من المغرب الأقصى، أسّست مع شلة لها من النساء الماكثات في البيت أوّل جريدة متخصّصة في فنّ الإنشاد حملت اسم " أوميغا "، و حملت معها شعارا غريبا : " الإسلام ديننا؛ العالم وطننا؛ الإنشاد فنّنا "، كان ذلك رسميّا في رمضان 1427 هـ؛ الموافق لشهر أكتوبر 2006 م؛ ثم توقّفت في العدد 10، لقد كان شعارها المكرّر كذلك : " أوميغا؛ قوّة الجماعة العالميّة ".

أتكلّم هنا عن واحدة من ألمع الإنشاديّات؛ التي لا يكاد يعرف الناس عنها سوى القليل جدّا، هي الأستاذة " آسيا سعادة "، ضابطة إنشاديّة برتبة " إيفاد "، و قد كانت آنذاك تحمل رتبة " سندس "، غير أنه من المهمّ الآن أن تعرفوا أشياء أخرى.

في ذلك الوقت كنت أحمل رتبة " مشير " لمّا طُلب منّي أن أقدّم دراسة مبدئيّة حول الوضع الإعلاميّ العامّ للسّاحة الإنشاديّة؛ و جملة من الاقتراحات كي يتمّ النّهوض به بعدما تأكّد للجميع أنّ هناك هوّة عميقة بين الإنشاديّين و الجمهور، بحيث لا يدري هذا الأخير ما يفعله الأوّل، ثم تطوّرت المسألة حين تحدّد نوع الفعل الذي يتوجّب القيام به، فكانت بناء أرضيّة للجريدة بحكم اشتغالي بالصّحافة لفترة من الفترات.

لكن اختيار الاسم كان مشكلة للبعض، كان الكلّ يفكّر في أسماء مستهلكة و معروفة مثل" إبداع "، " النّور "؛ ثمّ أتى إسم " أوميغا " نسبة إلى السّاعة المشهورة، و في هذا شيء من الرّمزيّة؛ التي لا تنافي الوسطيّة التي ابتغوها، لقد قصدوا أن ينتبه الإنشاديّون لمسألة الزّمن و ما يمكن لهم أن ينجزوه إن استغلّوه جيّدا.

على أيّة حال؛ كان المطلوب منّي بناء هيكل لهذا المولود البكر، راقت لي الفكرة كثيرا لكن ما عبته عليهنّ هو عدم وجود تاريخ محدّد لصدور الجريدة، معناه متى ما توفّرت المادّة الإعلاميّة يطلقون العدد، مسألة بسببها لم يستطع الكثيرون التّعامل معهم براحة كبيرة، إذا كان لديك منتوج ما و تريد أن تنشره لديهم، فأنت و حظك، يمكن أن يكون العدد قد صدر قبل يومين مثلا، و لا يصدر العدد التالي قبل 03 أشهر، لم أتدخّل في شؤونهن، نبّهتهن للفكرة التي يجب أن نراعيها و الله الموفّق لكلّ خير.

لحدّ السّاعة؛ ما زالت تُعتبر هذه الجريدة مرجعا للتّاريخ الإعلاميّ الإنشاديّ، لقد جمعت بين كلّ المذاهب الإسلاميّة دون إقصاء، كتبت عن أتباع آل البيت و الوهّابيّين و الإخوان و الصّوفية و غيرهم، لعلّ هذا لم يعجب البعض الذين اعتبروها ذات بصمة شيعيّة، غير أنه يجب أن نكون منطقيّين، إذا كنّا نقول عن أنفسنا أنّنا على مذهب سليم؛ فلماذا نهمّش مسلمين يشهدون بوحدانيّة الله تعالى و نبوّة رسوله لمجرّد أنّنا نختلف معهم في أشياء ليست جوهريّة ؟، ثم هل يمكن لنا نحن أن نحبّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أكثر منهم ؟، من منّا صلّى عليه في وقت خارج أوقات الصّلاة ؟، من منّا تذكره على الأقلّ ؟.

كانت أهدافها موضحّة كالآتي :

- مدّ جسور اتصاليّة صلبة بين الإنشاديّ و الجمهور.
- نشر الفكر الفلسفيّ الإنشاديّ في العالم بكل قاراته.
- إنشاء مساحة تواصليّة بين مختلف العاملين في الحقول الإنشاديّة.
- التشجيع على إنشاء جرائد و مجلاّت متخصّصة في فنّ الإنشاد وفق الفكر الإنشاديّ الحديث.
- الارتقاء بفنّ الإنشاد في إطار علميّ رفيع المستوى يليق بمكانه كفنّ سامٍ سموّ الرّسالة المحمديّة.

أستطيع الآن أن أقول عنها أنّها فعلا كانت تسعى لتوحيد المسلمين، كانت تحاول جمع الكلمة التي أمرنا الله بجمعها.

ثمّ تفاجأت حين تبيّن لي توقّف مجلّة " فن فن " التي تصدرها شبكة " إنشادكم " العالميّة، مباشرة بعد العدد البكر، بعدما كنا ننتظرها على أحرّ من الجمر، لقد كتب الفنّان " يوسف حسن " مقالا رائعا على صفحاتها، إعتقدت لشهر أنّ الأمور تسير على ما يرام، و أنّهم يجهّزون للعدد التالي، أتذكّر أنّي اتّصلت بالمهندس " مصطفى . ا " ذات يوم و سألته عن رأيه فيها، قال عنها أنها جيّدة و أنه يظنّ أنّها توقّفت لأنّها متأخّرة عن موعدها.

لا حول و لا قوّة إلا بالله، متى يكون لنا نحن الإنشاديّون و الإنشاديّات جريدة متخصّصة أو مجلّة حقيقيّة، تنشر همومنا و تثقفنا و تبني لنا الجسر الذي يجب أن يكون مع الجماهير المختلفة ؟.

قضيّة " ميس شلش "

تعدّ " ميس شلش " من أبرز الفنّانات اللّواتي خدمن الدّعوة الفنيّة بصوتها، نشأت على يد عمالقة أمثال " عبد الفتّاح عوينات " و " أيمن رمضان "، و " سميح زريقات "، تصنّف ضمن مدرسة " التّتابع "، كلّ شيء كان يسير على ما يرام حتى تاريخ لقاء الشيخ " القرضاوي " و فتواه الجريئة لها.

ثار بعدها صوت في إحدى المنتديات يطالب بتفكيك " جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة " لأنه هو سبب مشكلة الفنّانة " ميس شلش " الكبرى، دعوني أشرح لكم ما حدث بالتّفصيل و الله على ما أقول شهيد.

كانت هذه المنشدة و المغرّدة طفلة لها من الإبداع ما يؤهّلها لكرسيّ العرش، ثمّ بدأت تكبر، ممّا دفع بالبعض إلى التساؤل عن جدوى قيامها بالتّنشيد في ظل أفكار قديمة، و واقع حسّاس، لم تكن أيّة محاولة لتدميرها من طرف الجهاز، كيف تدمّر من أثبتت جدارتها في الدّعوة الفنيّة ؟، لقد صرّحت ذات مرّة لتلفزيون " الجزيرة " أنّ هناك من حاربوها، أقول و أنا مسؤول عن كلامي : " لقد تحرّك جهاز أنسام الصّباح عن نيّة حسنة تماما، هناك من حاربوها و لكن ليس نحن "، كانت الشّرارة التي أطلقت بعدها نارا من مصدر طيّب، أراد " جهاز أنسام الصّباح " أن يصحّح الأفكار لجميع المنشدات المتواريات عن الأنظار، و اللّواتي كان يُكتب على أغلفة إصداراتهنّ احتشاما كلمة " الطفلة ".

كان يجب طرح سؤال جوهريّ : إلى متى يا " ميس " ستظلّين طفلة ؟.

و لم يكن ليقف الجميع عند هذا الحدّ، بل يجب أن تثار ضجّة إعلاميّة عبر الإنترنيت عن صوت المرأة البالغة في التنشيد، لاحظوا جيّدا؛ أقول " التّنشيد " و ليس الإنشاد، لأنّ هذا الأخير أكبر من الأوّل، فهو الميدان الواسع الشامل للتنشيد، يجب أن يوضع كلّ شيء في نصابه، هل صوت المرأة عورة أم لا ؟، كان من الضّروريّ بما كان أن يجاب على هذا السّؤال من طرف عالم دين مسلم له وزنه في العالم، و أن تُأخذ إجابته على محمل التّشهير، لا أن تُكبت بين عدد قليل من الأفراد، و سارت الأمور مثلما كان متوقعا لها، حيث اتّصلت " ميس شلش " بالشيخ " يوسف القرضاوي " متصرّفة بذكاء شديد، و بهذا أثبتت 03 أشياء في قمّة الأهميّة :

- مرجعيتها السّليمة إذ يجب أن يرجع كل إنشاديّ للدّين يستقي منه كل أمور حياته، و خاصّة فيما تعلق بالدّعوة.
- القضاء على كلّ من يصطاد في الماء العكر مستغلاّ أوضاعا مشابهة، و تفريغ كلّ المساحات المغلقة التي سينفخ فيها الشّيطان مستقبلا.
- بناء نموذج واضح و سليم لتنشيد المرأة البالغة تستطيع المنشدات السّير على منواله بكلّ اطمئنان، دون اللّجوء إلى التّورية و ما شابه.

لا يجب أن تتوقف " ميس شلش " عن الدّعوة الفنيّة، كلّنا محتاجون لها و لكن في الإنشاد و ليس في التّغريد.

الاعتزال و العودة و جهود المنشد " عبد الكريم . م "

بعد توقّفي عن النشاط الإنشاديّ في مدينة " العفرون "؛ إرتأيت أن أواصل مشواري في مدن أخرى، يجب التّحرّك بالأفكار في مناطق تستجيب لها، ذهبت إلى " موزاية "، ثم مدينة " الشّبلي "، حوالي 40 كم إلى الشّرق من " العفرون " ثمّ وجدت أنّ هناك مشكلة على الأقلّ خارجة عن نطاق التحكّم :

- التّعجّل في الوصول إلى النّتيجة و القفز على المراحل بما في ذلك الاستراتيجيّة منها.
- بُعد مركز النّشاط عن موقع سكني ممّا يستهلك وقتا كبيرا للانتقال و العودة.
- غياب أهداف ميدانيّة مشتركة و الاكتفاء بهدف واحد مطاطيّ يُرفع شعارا في كلّ مكان دون الاهتمام بالتفاصيل الصّغيرة المهمّة، أو الأبعاد المتحكّمة في خصائصه.

كل ذلك أدّى إلى اقتناعي بأن ما يحدث لنا في الإنشاد فكريّ بالدّرجة الأولى، و عليه فإنّ محاولاتي فاشلة لأنّ الذين أعمل معهم يختلفون عني في الأولويّة الفكريّة، و بالتّالي فإنّ عليّ تحويل الجهد إلى الأصل و الجذر، " عالم الأفكار يسبق عالم اللاّ أفكار ".

كان المنشد السّابق في فرقة " الغيث " " عبد الكريم . م " يزورني من حين لآخر في البيت، نتبادل الأخبار، لم يقدر على إكمال مشواره في الفرقة، هو مثلي لا يحب العمل الفوضويّ، لأنه يدرك أنّ الواقع الذي نبنيه اليوم كيفما اتفق؛ إنما سيعود ضدّنا في يوم من الأيام، كان يريد تسجيل ألبوم، مرّة سألني عن رأيي في فكرة بناء استوديو في منزله، إستبعدت الفكرة تماما، يجب أن يكون الأستوديو ذا نوعيّة جيّدة أو لا يكون، غير أني أشهد له أنه كان يحاول تشكيل فرقة جديدة على أسس علميّة، قال أن معه المنشد السّابق في فرقة " الغيث " أيضا " عبد الرّحمن . ش "، و يستطيع جلب أفراد آخرين لنبدأ على بركة الله، غير أنّ إيجاد مكان مناسب للتّدريب كان عائقا كبيرا جدّا، يجب توفّر مكان متّسع و لا معنى لغرفة في دار الشباب أو في المركز الثقافيّ.

كنت ما زلت محتفظا برتبتي في مدرسة الأفكار، رتبة " سوار "، و كلّ الإنشاديّين الذين هم الآن ضبّاط مرّوا على هذه الرّتبة، من حين لآخر أتعرف على أسماء البعض منهم : " بشير . د "، " يونس . م "، " فتحي . ع "، " آسيا . س " مديرة جريدة " أوميغا " و غيرهم، منهم من تأثر كثيرا بالمنشد " أبي مازن " و إخلاصه لله، بل نشأ على أفكاره في الدّعوة.

الكلّ يحاول إخفاء هويّته الحقيقيّة رغم أن أعماله تكشفه مهما توارى عن الأضواء، هي الشّهرة من وراء حجاب.

واصلت العمل في هيئة " الإقليد " إلى غاية 2009، قرّرت بعدها الاعتزال نهائيّا لأسباب شخصيّة، أنجزنا كتبا حققت انتشارا واسعا، مثل : " المنظار في النّقد الإنشاديّ "، الذي بلغ عدد النّسخ المسحوبة منه إلى حدّ السّاعة قرابة 300.000 نسخة، " تأمّلات في الفلسفة الإنشاديّة " بحوالي 60.000 نسخة فقط، و بطبيعة الحال كانت مساهماتي في هذه الكتب عبارة عن كتابة أوّلية للموضوع، على غرار مساهمات الكتّاب الآخرين، ضبّاطا كانوا أم إنشاديّين عاديّين، بيد أنها

ساعدتني في كسب تجربة استراتيجيّة وظّفتها في أعمالنا الخاصّة بالنّادي، كطريقة وضع الفهرس التي تُعتبر الأساس في أيّ كتاب كان.

مقابل ذلك تنازل الجميع عن حقوقهم من أجل الفكرة العامّة، هي التّعليمة المعروفة بالرقم : 05200310200204، المهمّ أن تُنشر هذه الكتب على أوسع نطاق ممكن.

أتذكّر حين صدر كتاب " السّنابل "، لقد تكلّموا فيه عن استغلال قوّة الشعب العمياء لضرب الأنظمة الحاكمة، فعلا ها هم من قاموا بالثورة في الأمس نادمون الآن، سقطت الأنظمة و لا شيء تحقق، مثلما كانت تعد الشيوعيّة الشعب السّوفيتيّ في بدايات القرن 20، ثورة الصّين في 1911، ثورة الرّوس في 1917، و غيرها من الثورات العمياء التي أحدثت مشاكل لم يستطع من قاموا بها حلّها إلى الآن، هو الانتقال من خيبة إلى خيبة، و من وضع سيّء إلى أسوء في هالة بنفسجيّة تخفي كل بهتان، و هناك من الإنشاديّين من يدخل اللّعبة بنيّة حسنة و هو لا يعلم أنّ من سيّر هذا كان قد خطّط له قبل عشرات السّنوات، فحين يتغنّى " يحيى حوّى " بالحريّة؛ هل يعلم معنى هذا المصطلح المطاطيّ ؟، و هل يأمن استغلاله من طرف أيادٍ شريرة ؟، لقد سيقت الجماهير بعواطفها لمقتلها، و هي سعيدة كلّ السّعادة بهذا المصير.

إعتزلت الإنشاد و لم أعتزل التّصميم الإنفوغرافيّ للصّور الثابتة، تلقيت مرّة رسالة عبر حسابي في الفايس بوك من الأستاذة " غدير طه "، تطلب فيها مساعدة الشبكة في تصميم بانر للقاء مع منشد، طلبت مالا مقابل هذه الخدمة، فوقتي تقريبا موزّع بين العمل المأجور و العمل الدّعويّ، غير أنّها أكدت أنها مبعوثة من طرف عضوة لديهم في المنتدى، هذه الأخيرة هي زوجة ضابط إنشاديّ في " جهاز نبض الضّوء للخدمات الإنشاديّة "، توالت الاتصالات و قبلت انضمامي لفريق الشبكة كمصمّم أنفوغرافي فقط، إذ لا أستطيع أن أتورّط في وعود لا أقدر أن أوفي بها، نتعاون فيما تسمح به إمكانيّات كلّ واحد منّا دون أن نحرج أنفسنا أو نحرج الآخرين، و لكن أمام ضغط العمل الذي يأخذ كلّ الوقت لم أستطع الاستمرار، فإمّا أن يدفعوا لي و أصبح موظفا لديهم براتب ما؛ أو أتوقّف و أعمل لدى من يدفعون لي، للواقع كلمة عليا أحيانا.

إعتزلت الإنشاد إذن سنة 2009 بصفة رسميّة برتبة " شاهين "، ثم عدت إلى السّاحة سنة 2012، قبل صدور كتاب " متابعات في الثقافة الإنشاديّة " بحوالي شهر، و لهذا الكتاب قصّة أخرى.

عدت و أنا على ثقة أنّ هناك شيئا يجب أن أقدّمه بكيفيّة فريدة من نوعها، و إلاّ ما فائدة عودتي ؟، هل لأطبّق أشياء يمكن لآخرين تطبيقها ؟.

سيطرت هذه الفكرة على عقلي، أن أصنع جديدا لم يصنعه غيري فأسّست الناديّ الإنشاديّ " قندس ".

تأسيس نادٍ إنشادي هكذا دون إطار يهيكل الفعل داخل الفكر الإنشاديّ الحديث؛ كمن يصنع قصر كسرى برمل الشاطئ، بعبارة أخرى؛ لا يمكن لضابط إنشاديّ أن يؤسّس ناديا إلا إذا كان يحمل رتبة " إستبرق "، رتبة " شاهين " لا

تكفي، و لكنها تسمح بترأّس فرع أو قسم داخل النّاديّ.

كنت في مشكلة عويصة، رتبتي لا تسمح لي بإنجاز ما أسعى لإنجازه، و أدرك جيّدا أنّ القوانين الدّاخليّة صارمة جدّا، لا يستطيع أحد تجاهلها.

بناء عليه؛ قرّرت تأسيس فرقة فقط ثم بعد ذلك يقضي الله أمرا كان مقضيّا، في الفاتح نوفمبر 2012، شاء الله أن تُرفع رتبتي إلى " إستبرق " بعد مرور 06 أشهر من عودتي إلى النّشاط.

أمّا كيف كان هذا ؟؛ فتلكم قصّة أخرى لا أعتقد أنّ الوقت مناسب لها الآن.

المشاركة المشؤومة

متشدّد في اختيار العناصر التي تشكل فرقتي، لا لشيء سوى لدرء عواقب سيئة تنجرّ من تصرّف يمكن أن تصبح له بين عشيّة و ضحاها تداعيات خطيرة، لهذا كنت أحرج من قبول عضوات أقلّ من 10 سنوات، و لكن ما حدث يوم السّبت أثبت العكس و مع هذا لست مستعدّا للتخلّي عن قناعتي الشّخصيّة.

مشاركة لفرقة " الوفاء " اقترحها رئيس " جمعيّة النّسيم للفنون و السّياحة "، بمناسبة الفاتح جوان عيد الطّفولة، عملي تحت جهة أخرى ليس معناه إلغاء كلّ تعاون.

أتى عيد الطفولة في سنة 2014 يوم الأحد، و لكن تقرّر تقديم الاحتفال بيوم نظرا لكون يوم السّبت عطلة أسبوعيّة.

لم أشأ المشاركة لأسباب موضوعيّة، بيد أن إصرار البنات وقف حائلا، و لا سيما " ليلى "، حضّرنا كلّ الأناشيد المبرمجة، هي الآن جاهزة بتوزيعاتها، تنتظر تقديمها في قاعة السّينما، التي احتضنت مهرّجا و مهرّجة تمّ توجيه الدّعوة لهما خصّيصا لهذا اليوم.

بدأنا في التجمّع في الكنيسة القديمة مقرّنا السّابق، لأنه الأقرب و المعروف و الموثوق، في حوالي السّاعة 00 : 09، حضرت ابنة " كمال . ج " و صديقة أخرى بدافع الفضول، ثم ذهبنا إلى قاعة السّينما التي تبعد 50 مترا فقط، كانت المنشدة " أسماء . ف " آخر الملتحقات بنا، إذ كنا على المنصّة نجري " تدريبات الكشف "، و هي تدريبات على الأناشيد التي سنقدمها لنرى مدى جهوزيتنا لها، أجرينا قبلها تسخينات خفيفة فقد تدرّبنا جيّدا في اليوم السّابق، و ما زالت الأحبال الصّوتيّة في حالة تأهب، لاحظت خجل " منال " و " سهام " حين جاء بعض الحضور، قلت في نفسي : " متى سننتهي من هذا المشكل، الخجل في بداية المشوار فقط أمّا إذا بقي فيصبح ظاهرة غير صحيّة "، أتفهّم معناه في البداية، لكن إذا استمرّ فهذا يعني أن هناك شيئا ليس على ما يرام.

عند انتهاء " تدريبات الكشف " جلست البنات للرّاحة، و ذهبت إلى مقهى قريب لإحضار شاي يخفّف عن رأسي التّعب الذي بدأ ينال مني، و لمّا رجعت أخبروني أنّ " أسماء " سقطت من المنصّة و هي الآن تبكي من الألم، و ربما أرادت واحدة من البنات أن تسحبها إلى أعلى و لكن دون فائدة، فقد تهاوت إلى أسفل على يدها بارتفاع حوالي 01 متر، أصيبت بشرخ في العظم، لم تشأ الذهاب إلى المستشفى، و أكملت معنا المشاركة بيد بدأت في الانتفاخ شيئا فشيئا، ثم بعد أسبوع رأيت الجبس حول يدها، مشكلتها أنها جلست في مكان لا يصلح للجلوس، و أمام أيّة حركة ستفقد توازنها و تسقط، فمن المذنب ؟.

حادثة مثل هذه يمكن أن تلغي المشاركة تماما و تذهب جهودنا أدراج الرّياح.

هذا هو سرّ اختياري لعضوات فوق 10 سنوات، أي يستطعن الاعتناء بأنفسهنّ قليلا، و لكنّ إرادة الله فوق كلّ اعتبار.

كنت أريد الذّهاب إليها للسّؤال عن حالتها لولا أنّي انشغلت في العمل كثيرا تلك الأيّام، بعد ذلك شدّدت على البنات أن يحرصن على سلامتهنّ الشّخصيّة، لا أريد حوادث، تساهل بسيط يمكن أن يؤدّي على عواقب جدّ وخيمة، ماذا لو حدث ذلك و نحن في مشاركة بعيدة ؟.

تجربة " أسماء " معنا تحوّلت إلى كابوس مخيف، رغم أنها تماثلت للشفاء بسرعة.

تصرّف غير مسؤول

هناك من النّاس من إذا أخبرك أنّ الجوّ جميل يجب أن تتأكّد من زرقة السّماء بنفسك !.

يفصلنا شهر واحد عن رمضان، ستتحوّل عادات الجزائريّين إلى قواعد أخرى، شخصيّا تنقلب حياتي رأسا على عقب في هذا الشهر الفضيل، كل شيء سيمسّه التغيير حتى تدريباتنا، كثرة السّهر تؤثر على البنات، حتى أن " منال " يتغيّر صوتها.

فكّرت في رحلة ترفيهيّة في هذه الأيام القليلة المتبقية؛ وقع اختيارنا على الحديقة العامّة التي تقع في المدينة السّاحليّة " تيبازة "، موقع جميل محميّ خاضع للحراسة الأمنيّة، ممّا يضمن سلامة المنتقلين إليها.

زيارة تتطلّب شيئين :

- توفير النقل.
- توفير التأمين.

أخبرت بناتي أنّ عليهن إحضار طعام الغداء معهنّ، فالنقل ستتكفل به البلديّة حسب ما أخبرتني به " نعيمة "، رئيسة إحدى الجمعيّات الرّياضيّة التي تنشط لدينا، و التأمين سيتكفل به ديوان مؤسّسات الشباب، 48 ساعة قبل الرّحلة، هكذا هي الخطوط العامّة التي أعلمتني بها " هجيرة "، المكلّفة بالتأطير في المرّكب الرياضيّ الجواريّ، ليتبيّن فيما بعد أنها لم تكن تعلم شيئا في عملها، لقد أبقت القائمة لديها أسبوعا كاملا دون إجراء أيّ تأمين، و بناتي تنتظرن على أحرّ من الجمر، كانت " منال " قد اشترت دجاجة حين أعلموها في المنزل أنّ الرّحلة قد ألغيت، إتصّلت بأبيها " علي " لأخبره بالخبر، و الله أعلم ما كانت الأخريات تحضرنه ثم أفقن من حلمهنّ فجأة على كابوس.

هاتفت " هجيرة " عدّة مرّات مستفسرا عن الرّحلة، فقالت أنه لا داعي للقلق أبدا، و تعجّبت من العجلة التي أبدو عليها، ما أغضبني هو أني اعتمدت عليها لأنّها من المفروض أن تكون أعلم منّا بالبروتوكولات التي يجب الأخذ بها، كانت الرّحلة مقرّرة يوم الأحد 22 جوان 2014؛ حتى يوم السّبت 21 جوان لم يكن أيّ شيء جاهزا بعد، حتى أنّ مدير المركّب الرياضيّ الجواريّ " كمال . ج " انتظرها شخصيّا صباحا ليأخذ القائمة كرما منه لا غير، لأنه ليس عمله و هو في عطلته الأسبوعيّة، أتيت في المساء بعد إتمام بعض الأشغال العاجلة لأجدها في المكتب و القائمة أمامها، بل حتى أنّها لم تعترف بخطئها، غضب " كمال " منها و قال أنه سيحرّر تقريرا يقضي بنقلها من المركّب إلى مقرّ عمل آخر، ثم غيّر رأيه.

إنتقلت شخصيّا إلى ديوان مؤسّسات الشباب المعروفة باختصار " ODEJ "، و معي قائمة المعنيين بالرحلة، 11 عنصرا تحت تأطير 03 أفراد يساعدونني، " أحمد . ب "، " سميّة . ش "، " دنيا زاد . ش "، ليخبرني من استقبلني أن لا شيء من ذلك صحيح، هم غير معنيّون بالتأمين خارج مقرّ النشاط، و لا أحد أتى إليهم من المركّب الرّياضيّ الجواريّ، إذن كل

ذلك كان تضييعا للوقت، أسبوع و البنات ينتظرن بلهفة رحلة ترفيهيّة تجمعنا كأسرة واحدة ثم يتبخّر كلّ شيء بسببها، تصوّروا خيبة الأمل التي شعرت بها بناتي في لحظة من اللّحظات.

و أبعد من ذلك؛ كان انتقالنا للمشاركة في إذاعة البليدة دون تأمين، حسب ما أخبروني به في الدّيوان، كيف يمكن لها أن تؤمّن علينا و لا يوجد قانون يسمح بهذا ؟، و من سيؤمّن لها متخذا قرارا قد يفضي إلى توقيفه عن العمل ؟.

إذن هي نفس عقليّة اللاّمبالاة التي لدى الجمعيّة، حاولت الابتعاد عن فوضوية العمل بالخروج من الجمعيّة راضيا بالتعامل معهم من مسافة بعيدة آمنة؛ و ها أنا أجد الفوضى تتبعني أينما نزلت.

أمّا " نعيمة " فكنت أعلم أنّ الأمر ليس بيدها لأنّه سبق و أن تعاملت شخصيّا مع هذا المجلس الشعبيّ البلديّ، كما أنها لم تعدني بشيء.

كنت مصمّما أن آخذ بناتي في الرّحلة و مستعدّا للتّضحية بأيّ شيء، حين علمت أنّ التأمين لا يكون مطلقا كما أخبرتني؛ ذهبت إلى وكالة تأمين خاصّة في مدينة " البليدة "، وكالة " SAA " المختصّة في تأمينات من هذا النوع، طلبوا مبلغ 4000 د . ج لـ 30 شخصا حتى و لو ذهب 10 فقط، و يجب تسليم القائمة مختومة قبل 24 ساعة من التّاريخ المقرّر للرّحلة، و مع أني كنت أستطيع دفع الثمن إلاّ أنّ مشروع تسجيل ألبومنا الأوّل و ما تمثله لنا هذه الخطوة أعاقني، لا أعلم تماما ما سيكلّفني الأمر من مصاريف قد نتعطّل بسببها لو أنفقنا المال هنا و هناك، فقرّرت التّضحية بالرّحلة و الرّضوخ للأمر الواقع.

رمضان هذه السّنة متقدّم عن السّنة الماضية 10 أيام، عدنا إلى مواعيد عملنا السّابقة، 00 : 10 من يوم الإثنين لمدّة ساعة واحدة كي لا يشق الأمر على البنات، و لكن أمام حرارة الصيف؛ بدا و كأنّنا نحفر طريقا في جبل شامخ، لم تتأكد بعد مشاركة 05 جويلية، جهّزنا لها أنشودتين " يا بحر النار " لفرقة " الرّوابي " الأردنيّة، و " كان لا بدّ منها " للمنشد و المغرّد " عبد القادر قوزع "، و لكن أوقفنا كلّ شيء لمّا تأكد إلغاء الاحتفال.

لم نضيّع وقتا، تحضيرنا هو تدريب لنا جميعا، و ما تعبنا عليه مستحيل أن يضيّعه الله هباء منثورا رغم أن توقيف النشاطات في المركّب الرياضيّ الجواريّ أتى فجأة دون سابق إنذار؛ و لكن عمل النّادي يبقى و لو تعطّلت الفرقة إلى غاية شهر سبتمبر موعد الدخول المدرسيّ.

إتخاذ عشيق

ما كان الحبّ عيبا في يوم من الأيّام؛ هي العواطف في أسمى صورها تنفجر في إصرار عجيب و شديد، سيخفق القلب لشخص ترتاح له كل الجوارح لا مشاحة في ذلك، و ستزداد سعادتنا بالقرب منه، و عندئذ يكون كل شيء يوحي بهذا الفائض من الأحاسيس؛ التي يجب أن تجد قناة مناسبة للتدفّق عبرها.

ليست مشكلتنا في القنوات بقدر ما هي في التناسب الذي يطبعها، فيجعل منها حينئذ حقّا شرعيا لا غبار عليه.

بنات الأمس تكبر و تكبر معهنّ أحاسيسهنّ، و طفلة الماضي لم تعد مجرّد صبيّة تتطلّع لدمية جميلة عليها لباس أبيض، هي الآن تقترب من سنّ تجتاز بها ألعاب الطّفولة إلى جديّة الكبار، و إذا كنّا نزعم أننا دعاة للمولى؛ فيجب أن تكون أخلاقنا ذهبا خالصا لا يشوبه شيء يؤثر على البريق و اللّمعان، و لا أظنّ أنّ اتخاذ عشيق سيبقي الذّهب يتلألأ.

وصلتني معلومات أنّ واحدة من عضوات النّادي لديها من يخفق القلب لأجله، و هي تقابله من حين لآخر، هي لا تستطيع إخفاء أمر كهذا، كما أنّها ليست الأولى التي تقترف هذا الفعل، فقد كانت لديّ منشدة في فرقة " الإيمان " لها موقف مماثل، و للشّيطان خطط يوقع فيها ابن آدم حسب نفسيّة كلّ واحد، هي المشاعر حين تتطوّر إلى الافتقار لأناس نحتاج إليهم عبر منحانا الزمني، لم نكن في حاجة إليهم سابقا؛ لم نكن نفكّر في وجودهم، فقد كانوا من الغيب بالنّسبة لنا حتى تولّد النقص إليهم فجأة.

مشاعرنا مصائبنا يمكن أن تؤدّي بنا إلى الهاوية لو تركناها تسيّرنا.

أمّا أنا فمشكلتي مشكلتان :

- حرج أجده في الموقف ككلّ، فكيف يُعقل لمنشدة أن تقابل شخصا غريبا عنها بعيدا عن الأعين ؟.
- أمّها التي وصلها الخبر فأضحت تشك في تصرّفات ابنتها باستمرار، و لو استدعيت عضوات الفرقة لحصّة إضافيّة ما كانت أمّها لتصدّق ذلك، ففي ذهنها صورة أخرى غير التي من المفروض أن تُرسم.

ثم بعد كل هذا يتدخّل الشّيطان ليوسوس للعشيقة المغلوبة على أمرها أن تتوقّف عن الإنشاد تفاديا للحرج، زاعما لها أنها نصيحة رائعة، و لكن في الحقيقة ما هو سوى فخ لها منصوب، بخبرته و تجربته أمام بني آدم، فإذا توقّفت عن الدّعوة الفنيّة عزلت نفسها عن الخير، وهو ما يسعى إليه الشيطان، كما تكون قد أغلقت متنفسا طبيعيّا لأحاسيسها التي لو حوصرت لزادت التهابا للفراغ الذي تجده و ستكون فيه، و هل تأتي المعصية من شيء غير الفراغ ؟.

من يضمن لها أنه سيكون زوج المستقبل ؟، إن أغلب هذه الحالات تنتهي و هي في مرحلة نموّ لأيّة عقبة في الطريق، و لكن الإشاعات ستلعب دورها على أكمل وجه، و لن يكتفي الناس بتصديق كل ما يُقال، بل كل واحد سيضيف شيئا من عنده تحت كل إشاعة، و في النهاية سيكون خاسر واحد هو العاشقة المسكينة.

حين كنت شابّا يافعا؛ أحببت عشرات الفتيات، لم نكن نعرف حقيقة الحبّ، كلّ من تعجبك في لحظة من اللّحظات يتولّد الاعتقاد و يترسّخ بأنك تحبّها، هيهات ما كـنّا عليه؛ ربما سأتعرّض بالتفصيل لهذا في الجزء 03 بحول الله، من يعلم ؟، قد يستفيد الإنشاديّون من ذلك في تأسيس أسرة على أسس قويّة.

ماذا جنيت الآن من ذلك الذي كنا نعتقده الحبّ ؟، كلّهن تزوّجن و بقيت وحدي.

أقسمت ساعتها أني سأتحكّم في مشاعري، و لمّا يأذن الله سأذهب مباشرة إلى سعيدة الحظ أفاتحها في الموضوع، سآخذ موعدا رسميّا لخطبتها فيه إن شاء الله، سأحضر أبي و عمّتي و كلّ ما أجده يتحرّك في البيت، المشكلة أنّ القطّ الذي كان لديّ لم أجده، لقد اختفى في تلك الفوضى حين انتقلت إلى المسكن الجديد.

التحضيرات الأوّليّة لألبومنا البكر

منذ مدّة و أحلام التسجيل تراودني، أحببت أن أضع شيئا مثمّنا في التاريخ، يبقى ذكرى للأجيال القادمة، أثر المشاركات ليس مضمونا، ليس لدينا ما يخلّد ذكرانا بين الناس كإنشاديّين أصحاب رسالة سوى أن نبقي شيئا ما في الأرشيف الإنسانيّ، و هو في ذات الوقت مفخرة لنا و لا فخر، كوننا نؤسّس شيئا من أجل إسعاد الآخرين.

بدأت التحضير للعمليّة ابتداء من جوان 2014، كلّ المعطيات تبشر بعواقب سعيدة، أصوات الفرقة في تحسّن، و لا سيما " سهام " و " منال "، و حتى " ليلى "؛ بصعوبة كبيرة، حيث بدأن يتحكّمن في التّقنيات المستعملة أكثر فأكثر، و شيئا فشيئا بدأت ألاحظ أنّ التحضير لأنشودة بسيطة ما فتئ يُصبح أمرا سهلا لا يتعدّى 03 حصص.

كلّ العمل ارتكز على صفحتنا في الفايس بوك؛ و منها انطلق البرنامج.

أوّل متفاعلة استجابت لي كانت الشّاعرة " حياة الهيجاء " التي أهدتني قصيدتها " أحلام الليل "، أرسلتها بدوري للملحّن " عبد الرّؤوف بن عمّورة "، الذي تطوّع لتلحينها مجّانا معتمدا على منهج احترافيّ فريد من نوعه؛ إذ يقدّم اللّحن الأساسيّ ثم الألحان المرافقة التي يشتغل عليها الكورال، مسموعة على آلة عزف و مكتوبة بالصّولفيج، في ملفّ إلكتروني، صالح للاستعمال في الأستوديو، ثمّ التّوزيعات الإيقاعيّة من يمكنه مساعدتنا بهذا الشّكل ؟.

بعد أيّام ردّ عليّ معتذرا عن التّأخير مبديا أسفه على الإطالة، مرجعا ذلك إلى ظروف قاهرة لا يملك فيها نور مصباح، مضيفا أنّ القصيدة جاهزة إلا بعض اللّمسات، و ما زلت أنتظر.

في نفس الوقت إتّصلت بشاعرة فرقة " الوعد " اللبنانيّة؛ الأستاذة " أسماء قلاوون "، كريمة معي إذ باعتني قصيدتي " دمع الجراح "، و " القبر "، و أهدتني " الطفل الأسير " من تلحينها، من المفروض و من المنطقيّ أن أدفع مقابل كلّ قصيدة 200 دولار أمريكيّ، أي حوالي 30 ألف د . ج، هكذا هي الأسعار في لبنان، لكن خفّضت المبلغ إلى 100 دولار فقط، أي حوالي 16 ألف د . ج، و أمام ضيق الحال أخذت القصيدة الواحدة مقابل 5000 د . ج، كلّ المال سيذهب للأستوديو الذي سيحتضن مولودنا البكر، و عليه؛ يجب أن أكون حذرا في أية مغامرة كونها تستنزف ما يمكن أن يكون ضروريا على أبواب أخرى.

و بسبب هذا الشاعرة؛ تعاملت مع شاعر فذّ من فلسطين هو الأستاذ " أديب عابد الرنتيسيّ "، فكان كريما معي إلى حدّ أنه أخجلني منه غاية الخجل، بعد أسبوعين فقط من طلبي؛ أرسل ملفّا كاملا يحوي باقة من أشعاره، إخترت منها قصيدة " رحيق تعشق الأخضر "، التي كتبها عن ابنة أخيه البرعمة التي لا تتجاوز 05 سنوات من عمرها، تعصّب رأسها بعصابة خضراء، اللّون الذي تتخذه حركة " حماس " الفلسطينيّة شعارا لها، و قصيدة " ساعة و ساعة " المبنيّة على فكرة الأستاذة " سناء قاسم " المقدسيّة، في انتظار اعتماد قصيدة الشاعرة " أسماء " اعتمادا نهائيا، فتكون بعض الأبيات التي كتبها الأستاذ " أديب " مقدّمة لها.

إتّصلت بعدّة أطراف منهم المنشد و المغرّد " مشاري العرادة " طالبا منه مساعدتي هو و المنشد " بدر الحمودي "، ثم اعتذروا صراحة أو ضمنيّا لظروف لا أعلم طبيعتها، لم أجد أمامي سوى أنشودة " الطفل الأسير " لأشرع في التّدريبات عليها، كان هذا يوم السّبت 20 سبتمبر 2014، مسمعا اللّحن لعضوات الفرقة، اللّواتي تحكّمن به جيّدا.

نصائح " حسن النيرب " و " غسّان أبي خضرة "

لا يجب أن أخوض طريقا ما دون توفر معلومات كافية، هذا ما استخلصته من الماضي، و ما فائدة أن نعمل دون أن ننظر للآخرين للاستفادة من تجاربهم، و خاصّة عمالقة الإنشاد، و ما فائدة حياتي إذا أخفيت تجربتي عن الآخرين ؟.

طلبت نصائح و توجيهات من عدّة أطراف على الأقلّ كي لا أقع في أخطاء وقع فيها غيري فكان من بين من نصحوني المنشد و المغرّد " حسن النّيرب " من فلسطين، كنت أسمع بهذا الاسم منذ مدّة، و خاصّة عندما سجّل أنشودة مع المنشدة الطفلة " سراء برهوم " حملت عنوان " جمال الكون "، كنت معجبا جدّا بهذا العمل، لقد عرف كيف يختار عناصر النّجاح، فيجب أن أختاره لأنجح، و فعلا اتصلت به عبر الفايس بوك فنصحني متواضعا بما يلي :

- إختيار فريق الانشاد الذي سيؤدّي الألبوم و تصنيف من سيقوم بالصّولو و من سيؤدّي الكورال و لابدّ أن يكون الكورال متجانسا وتمّت تجربته.
- توفير كلمات قوية و مؤثرة و بسيطة في نفس الوقت، لا تُستعمل الكلمات الجزلة و الصّعبة.
- مرحلة التّلحين؛ و الألحان مهمّة جدّا؛ فكم من كلمات ركيكة حين يكسوها لحن جميل تصبح رائعة، فالعكس صحيح، فلا بدّ أن يتمّ التلحين وفق الصّوت الذي سيؤدّي الأنشودة، يعني أن الملحّن لابدّ أن يعرف المنشد الذي سيؤدي الأنشودة ليطابق اللّحن إمكانيات صوته و طبقاته.
- مرحلة التّسجيل، و هي الأستوديو الذي سيسجّل فيه الألبوم، فلابدّ أن يكون نقيّ الصّوت صافيا ليس فيه أدنى تشويش، أمّا الموزّع الذي سينفذ الأعمال توزيعا و يقسّم الأدوار بين الإيقاع و الفرديّ و الكورال؛ فهو أهمّ شخص في الألبوم، لأنه هو من سيخرج العمل بشكل رائع، أو ينسف كلّ المراحل السّابقة حتى لو كانت في قمّة الجمال.

أمّا " غسّان أبو خضرة " المنشد المعروف؛ فركّز على نقاء الصّوت في أستوديو التّسجيل في كلمات مقتضبة جدّا، دون أن يعطي أيّة تفاصيل أخرى.

ليجازي الله هؤلاء و غيرهم على كلماتهم من جناته العليا.

الاتصالات الرّسميّة بالمهندس " فريد يماني "

يوم الثلاثاء 05 أوت 2014؛ هو يوم ذهابي إلى استوديو المهندس " فريد يماني "، هذا الرّجل الذائع الصيت لدى العائلة الإنشاديّة، لا أعلم لماذا وجدت نفسي متثاقلا بعض الشّيء ؟، قال لي سابقا : " إذا أردت الحضور فأعلمني مسبقا "، غير أن كثرة مشاغلي جعلتني في حرج منه، فكلّما أخبرته بموعد؛ طرأ لي طارئ، فاستحييت هذه المرّة أن أهاتفه خشية تكرار ما يحدث لي دائما.

ذهبت إليه عبر الحافلة؛ على مرحلتين، خط " العفرون " / " البليدة "، ثم خط " البليدة " / " الجزائر "، نزلت في محطة تعرف باسم " LA COTE "، آخذا سيارة أجرة، هو عمّي " السّعيد " كما يناديه البعض، تكفّل مشكورا بنقلي إلى مركز البريد لمدينة " حسين داي "، مقابل 400 د . ج، كان قلقا خوفا ألاّ أقبل دفع المبلغ المطلوب مقابل خدمته، قبلت مباشرة دون تردّد، المهمّ لي أن أعرف المكان؛ أمّا ما أصرفه و ما سوف أصرفه فهو في سبيل الله، هذه السّبيل التي تخلّف الكثيرون عنها، و يا ليتهم يعلمون ما تخلفوا عنه.

لمّا وصلنا لمكتب البريد كانت السّاعة 20 : 10 صباحا، بادرني عمي " السّعيد " بالقول : " هذا هو حي عميروش الذي تبحث عنه، هذا هو كلّه "، مشيرا بيده إلى مساحة شاسعة من العمارات و الأبنية، و أردف : " إذا كنت متّفقا مع أيّ شخص و تهت عن الهدف؛ فاجعل مركز البريد مرجعا لك، فالكل يعرفه هنا "، أحسست أن الله معي و هو الذي سخّر لي هذا الشّخص بهذه العقليّة من التفكير المنظم، لقد أعطاني المعلومات التي أريدها بالضّبط دون زيادة أو نقصان، أعطيته أجره و كدت أن أضيف إليه 100 د . ج، لقد قدّرت المسافة التي قطعها من أجلي و الوقت الثّمين الذي بذله في الطريق.

هاتفت " فريد " ليرشدني إلى مكان الأستوديو، المسمّى : " olympia "، قائلا له مباشرة حين فتح الخط : " أهلا فريد أنا عبد الرزاق؛ أنا الآن أمام مركز البريد، أين أجدك ؟ ".

- " من ؟، عبد الرزاق ؟؛ آه ... أنا نائم، أعمل هذا المساء ابتداء من السّاعة 00 : 17، للأسف الأستوديو مغلق ".

- " ما العمل الآن ؟، أنا أنتظر هل أعود ؟ ".

- " آسف لا أستطيع الحضور صباحا، نمت البارحة بعد السّاعة 00 : 04 فجرا ".

عدت أدراجي موكلا أمري لله، فقد عملت أنا كذلك في كثير من الأيّام حتى السّاعة 00 : 05 صباحا، و أدرك الحالة العصبيّة التي يكون عليها من يقضي ليلته كاملة أمام شاشة الكمبيوتر غارقا في التّفكير و التّنفيذ.

كانت السّاعة 00 : 17 مساء حين وجدته متصلا عبر الفايس بوك، شرحت له الموقف مبديا اعتذاري إن كنت قد تسّببت له بإزعاج، لأني لم أكن أعلم، فكتب لي أن تعال غدا إن أردت ابتداء من السّاعة 00 : 10 فوافقت مباشرة.

خشيت هذه المرة أن يتأخر في العمل و يتأخر في النّوم إلى الصّباح، فهاتفته أكثر من 05 مرّات ليجيبني : " ألم أقل لك أني متواجد في الاستوديو ابتداء من السّاعة 00 : 10 ؟!، تعال إذن متى أردت ".

كنت أريد الانتقال إليه مباشرة لو كنت أملك سيّارة، موعد القطار على السّاعة 45 : 10، و مع التأخير أشارت الأرقام إلى 20 : 12 حين كنت في الطريق إلى حي " عميروش "، سألت بعض الباعة في المحلاّت المجاورة فدلّوني على المكان.

أنا الآن في استوديو " فريد يماني "، تناقشنا لفترة وجيزة حول طبيعة العمل و الأسعار و المواقيت، فكانت الحصّة الواحدة المقدرة بحوالي 07 ساعات متواصلة بسعر 10000 د . ج، يكون فيها التّسجيل مع الميكساج مع تنفيذ التّوزيعات، أما إذا كان هو من يضع التّوزيع الإيقاعيّ؛ فيجب أن أضيف 4000 د . ج، و قد ينزل الثمن إلى 3500 د . ج، أي إذا كان هو من ينفّذ التّوزيعات دون التفكير في كيفيّة إنشائها؛ فلا أدفع سوى ثمن الحصّة فقط، أمّا كم يكفي الألبوم من حصص ؟؛ فالأمر راجع إلى البنات، يجب أن نضع أنفسنا في ظروف مشابهة كي نستطيع التأقلم مع الواقع.

قلت له : " قصدت محترفا أوصاني به رئيس فرقة " أشواق " من ولاية " بشار " و ليس كل من جلس إلى طاولة مزج الأصوات محترفا "، الفرقة الإنشاديّة العريقة التي أصبحت الجزائر معروفة بسببها في عالم الإنشاد، فأحنى رأسه متواضعا هامّا بالانصراف، أدركت أني مع خبير يعرف جيّدا ما يريد، و أضحى التأكد من إدراكي أمرا استراتيجيا، و لا أزكي على الله أحدا.

ربع ساعة فقط كانت كافية لتوقيع العمالقة.

تفكير لم أفهم طبيعته !

نمارس الإنشاد في أوقات الفراغ، و هذا الأخير هو وقت العطل و الإجازات، فيه يكون الأطفال في راحة، و قد يملّون من ساعات الصّيف الطويلة الحارة التي تذهب في برامج التّلفاز التّافهة أو في مجالس الغيبة و النّميمة.

و منهم من يحفظ القرآن الكريم، أو يمارس عملا مأجورا كسبا لبعض المال لإنفاقه على نفسه و لا سيّما لشراء الأدوات المدرسيّة.

لقد حلّ عيد الفطر هذه السّنة في الجزائر يوم الإثنين 28 جويلية، إنتهى شهر العبادة عند الناس و شهر الكسل، لم تستطع البنات العمل معي بسبب الطقس الحارّ و الرّطوبة العالية، التي تقطع الأنفاس، رحمة بهنّ أجّلت كل شيء لبعد العيد، غير أنّ مدير المركب الرياضيّ الجواري أوقف كلّ الأنشطة الرياضيّة و الثقافيّة لغاية دخول التلاميذ إلى المدارس، لقد ارتكب خطأ فظيعا إذ ساوى بين الرياضة و الثقافة، فلو أغلقنا كلّ مساحات النشاط في العطل بدعوى أن نمنح راحة للأطفال؛ فأين سيتوجه هؤلاء أمام ساعات النّهار الطّويلة ؟، و هل كلّ الأطفال سيذهبون لمخيّمات صيفيّة على الشواطئ ؟.

قرار أثّر كثيرا على سيرورة العمل العادية للفرقة، حيث لم نستطع التّدريب أكثر من شهرين متتاليين، و لدينا ألبوم في الأفق، و لا تنسوا أنّ اسم المقرّ الذي نتدرّب فيه المركّب الرّياضيّ الجواريّ، أي للجيران خاصّة من القاطنين قربه أو الذين يستطيعون الوصول إليه.

لم أقدر على فهم طبيعة هذا التّفكير إذ يمكن للكثير من الأمور أن تسير بشكل خاطئ، في دار الشباب نستطيع العمل في أيّ فصل، أنت و ما تستطيع تحمله، و عادة ما تعمد الفرق الإنشاديّة إلى استغلال ساعات الصّيف الطويلة للتّدريب، فتقريبا الجميع في عطلة، و من يعمل؛ فإنّه يرجع لمنزله السّاعة 00 : 17، و أمام اعتدال الطقس قليلا يخرج الناس في السّاعة 00 : 18 أو بعدها بنصف ساعة، فيمكننا التدريب في المساء، هو توقيت يساعد الجميع.

بعبارة أخرى؛ في عام كامل سنتدرّب 06 أشهر فقط، و الباقي إمّا عطلة سنويّة؛ أو عطلة إجباريّة للتفرّغ لاختبارات الدّراسة، و بعد هذا هناك من الناس من يتمنّون لك النّجاح و يسألون الله لك التّوفيق !.

قرار إيقاف المشاركات و ضغوط جمعيّة " النّسيم "

كنت قد اتفقت في السّابق مع المصوّر " نور الدّين بسّام " صاحب استوديو " الأمل " للتّصوير، على استخراج صور البنات و وضعها في إطار كبير ، هي نفس الصّور التي أدرجت في كتاب " أوراق من المكتبة الإنشاديّة "، أردت إفراحهنّ في يوم بهجة المسلمين، بهذا أصبح بمقدور الواحدة منهنّ تعليق صورتها المكبّرة على جدار غرفتها، ربما هو تصرّف بسيط لكنّه تصرّف مقصود أكبر من تلك البساطة التي يوحي بها، و طبعت نسخة واحدة من كتاب " نوال " الذي سيصدر قريبا إن شاء الله، من أجل معاينته، وفق المنهجيّة التي من المفروض العمل بها، التي تختلف عن المستعملة سابقا، إضافة إلى نسخة مبدئيّة من مذكراتها الشخصيّة؛ و كتبت لها بعض الملاحظات الهامّة التي يجب التقيّد بها.

بعد العيد مباشرة هاتفني الأستاذ " رابح . ا " ليهنّئني؛ و ليغتنم الفرصة بتقديم عرض انضمامي لجمعيّته المحليّة التي لم أرها مطلقا إلى الآن.

اليوم هو الخميس 14 أوت 2014؛ أمام مقرّنا القديم؛ و إلى الشّرق منه تحديدا؛ في شارع من شوارع المدينة؛ كان رئيس جمعيّة " النّسيم " واقفا يتحدّث بواسطة هاتفه المحمول، إقتربت منه فهشّ و بشّ لرؤيتي؛ في الواقع كان مستاء جدّا من كتاباتي رغم أني أخبرته منذ البداية أني انتهجت الصّراحة، محاولا أن أكون موضوعيّا قدر المستطاع، ليستفيد الآخرون من تجربتنا، فما نكسب من الشّتم و السبّ و الكلام اللاّذع ؟، ما أردته هو سرد للأحداث كما هي استسقاء للدّروس.

أكّد على ضرورة المشاركة في الفاتح نوفمبر عيد الثورة الجزائريّة، و لكن الألبوم الذي أسعى لتحضيره يأخذ كل وقت و مجهود، و هو ذو أولويّة مطلقة، ثم تأتي المشاركات بعد ذلك لتخدم هدفين :

- الإشهار للألبوم.
- الاحتكاك مع الجمهور لمعرفة ردود أفعاله تجاه أناشيد الألبوم.

إقترحت عليه دفع ثمن كراء الأستوديو واضعا مبلغ 30 ألف د . ج كمعدّل مبدئي، فقال أنّه ينبغي تخصيص ميزانيّة له، ثم سأل عن طبيعة الأناشيد التي ننوي تسجيلها، و إن كانت تأتي بمردود ماليّ مناسب.

إذا نظرنا للعمليّة من باب التّجارة فلن ننجز شيئا رفيعا البتّة، كلّما أردنا تحصيل ما صرفناه يجب أن ندنّي المستوى.

ففي الواقع ما زلت أحتاج لكثير من التّجهيزات كالخوذ الصوتيّة التي أنا في أمسّ الحاجة إليها، و لكنّ المغامرة مع هؤلاء يمكن أن تفشل كلّ شيء.

يوم الجمعة 15 أوت 2014؛ كنت متّجها إلى المقهى لتناول كوب من الشّاي في محاولة مني لتجنّب القهوة التي أضرت كثيرا بأعصابي، إلتقيت بمن تخبرني أنّ " سهام " و " فلة " توقفتا عن العمل معي، قائلة أني تلاعبت بهما؛ فقد أتوا

جميعا يوم الفاتح من سبتمبرإلى المقرّ المعتاد و لم أكن هناك، فقلت أن القرار ليس بيدي، و اني أنتظر الضّوء الأخضر من المدير كي أشرع في التّدريبات لهذه السّنة، هذا المقرّ ليس مقرّا خاصّا بنا مثل الكنيسة القديمة، لا يمكن أن أستعمله وقتما أشاء.

بعد صلاة الجمعة مباشرة؛ وجدت " كمال . ج " عائدا إلى بيته، تفاهمت معه على موعد الانطلاق و هو 12 سبتمبر 2014، على السّاعة 00 : 14 بعد الصّلاة، " سهام " لم تفهم كلامي جيّدا، قلت أننا سنشرع في العمل ابتداء من شهر سبتمبر و ليس في الفاتح من سبتمبر، الموعد المحدّد في الإعلان المنشور على صفحة " أخبار العفرون " في الفايس بوك يخصّ التّسجيلات الجديدة فقط التي تكون في الفاتح سبتمبر، سوء فهم كهذا قد يصبح مشكلة.

ينقصني مكبّر صوت على الأقل كي أبدأ التّحضير بجديّة للألبوم، من المفروض أن أستعمل الخوذ الصّوتيّة هي أحسن و أفضل للعمل، لأنّ المنشد أو المنشدة تسمع صوتها الحقيقيّ كما يسمعه النّاس، كما أنّ عزل صوتها عن الأصوات الخارجيّة يساعد كثيرا على التّركيز، و على سماع اللّحن جيّدا دون أيّ تشويش.

سبق و أن أطلعني " رابح . ش " على حلّ لمشكلتي، و لكنه حلّ يتطلّب 5000 د . ج، للخوذة الواحدة، و أحسب أنت كم سيكلّفني لو علمت أن الرّقم سيرتفع إلى 10 ؟، دون أن تنسى أنّ هناك مصاريفا للألبوم ضروريّة، و شيء آخر في الأفق يسمّى " المسابقة الإنشادية الأولى ".

عقدنا أولى اجتماعاتنا للموسم الجديد 2014 يوم الجمعة 12 سبتمبر في السّاعة المتفق عليها سابقا، حضرت البنات : " سهام " و " فلة " و " منال " و " أماني "، ثم جاءت " كنزة " مع أختها، و أخيرا جاءت " ليلى " و على وجهها علامات التعب، قالت أنّ كلبا ضالاّ جرى خلفها.

سبحان الله أصبحت الآن مشكلتنا مع الكلاب الضالّة التي تزخر بها شوارع المدينة !.

يوم السّبت 13 سبتمبر 2014 سألت " فاتح . ب " ممثل البلديّة عن وجوب تحديد موعد لاجتماع عاجل لرؤساء النوادي من أجل تقسيم الحصص السّاعيّة، فقال أنّ الفكرة موجودة ليوم الغد على السّاعة 00 : 16.

أجهل لماذا أعاني هذه الأيّام من ضغط عصبيّ رهيب ؟!؛ ربما لأني لم ألتقِ ببناتي منذ مدّة، و أنا الذي اعتاد على أصواتهنّ و مشاكساتهنّ، أو ربما لأني مقبل على تجربة هي الأولى من نوعها، الله أعلى و أعلم.

هاتفت صديقي أستاذ الموسيقى " جمال . س " مستفسرا عن الألحان التي أنتظرها منه، فقال أنها لم تجهز بعد و أنه يجب أن يزور الفرقة ليتعرّف على الأصوات عن كثب.

قصيدة " أحلام الليل " لم تجهز بعد عند الملحّن " عبد الرّؤوف "، أي عليّ أن أبدأ بما يتوفّر عندي من قصائد ملحّنة و ليست لي سوى واحدة أهدتني إيّاها الأستاذة " أسماء قلاوون ".

إشتريت مكبّر صوت من عند " سامي " بائع أجهزة الكمبيوتر و لواحقها بمبلغ 3800 د . ج، لقد ساعدني بكل ما يستطيعه التاجر و هو الذي يرفض التّعامل مع جمعيّة " النّسيم "، إلى غاية هذه اللّحظة ما زال له دين لم يسدّدوه، حين أخبرني لم أصدّق أنّهم يفعلون معه كل ذلك؛ رغم أنه أغاثنا حين كنّا في أمسّ الحاجة إلى مساعدته، و مع زيادة طول المدّة و غرابة تصرّفات المحاسب معه يزداد غضبه.

للتخلّص من الضّغط العصبيّ الذي أنا فيه؛ عزمت على قضاء بعض الحوائج العالقة كسرا للرّوتين القاتل، تخلّفت عن موعد تقوية العضلات، هذه القاعة التي أفرغ فيها الطّاقة السّلبيّة المتراكمة من عملي، في برنامج تدريبيّ يركّز على تناسق الجسم أكثر منه على تضخيم العضلات.

ذهبت إلى " نور الدّين . ب " المصوّر الشاب الذي نتعامل معه، أردت وضع صور بناتي على غلاف هذا الكتاب، أردت 03 وضعيات مختلفة ثم أختار بعد ذلك حسب ما يتوفّر لي، فاستسهل الأمر مفضّلا أن أحضرهنّ معي على عكس المرّة السّابقة، وافقت بعض البنات و تحفّظت أخريات.

إتفقنا في اجتماع النّادي يوم الجمعة 12 سبتمبر 2014 على ما يلي :

- تغيير موعد التّدريبات ليكون يوم السّبت على السّاعة 30 : 09.
- توجيه الدّعوات إلى العضوات اللاّئي كنّ معنا.
- تأخير الكتب التي ستعرف النور مستقبلا إلى موعد لاحق ريثما تتوفّر معلومات أكثر.
- إلغاء المشاركات بجميع أنواعها و التركيز على الألبوم الذي سيأخذ منّا كلّ الوقت و الجهد.
- إطلاق المسابقة الإنشاديّة الأولى لسنة 2014 بجوائز محفزة.

أعلمتني " نعيمة " يوم الأحد 14 سبتمبر بواسطة هاتفها الشخصيّ عن إلغاء الاجتماع الذي كان مقرّرا في تلك الأمسية مؤجّلا إلى يوم الغد في نفس السّاعة.

في الغد وجدت نفسي مع " بلال . و " مدرّب رياضة " الكراتي دو " و " نعيمة " رفقة المدير و " فاتح . ب " ممثل البلدية و غاب الآخرون دون أن نعلم بقيّة التفاصيل.

و تأجّل من جديد إلى يوم الخميس على السّاعة 00 : 17.

سجّل المدير توقيتي الجديد مبديا استعداده لإضافة حصّة أخرى إن أردت، و مبديا انزعاجه أيضا من غياب ممثلي الجمعيات الذين لم يكلّفوا أنفسهم حتى ثواني اعتذار في الهاتف، في تلك الأمسية التقيت مع " كنزة " قافلة إلى المنزل، لم يكن لديّ جديد فعليّ أخبرها به؛ فاكتفيت بالابتسام و التحيّة.

تربّص مغلق

كنت في حاجة ماسّة إلى العمل مع بناتي، العمل الرّسميّ الذي انطلق في اجتماع الجمعة الماضي أصبح بمقتضى التوقيت الجديد يوم السّبت من السّاعة 30 : 09 إلى 00 : 11.

هؤلاء البنات؛ منحوني شعورا أبويّا قبل أوانه، لا أعلم لماذا أكون في راحة نفسيّة حين يكنّ معي؟، لو كنت تزوّجت في سنّ 25 سنة لكان لديّ ولد الآن أو طفلة تقريبا في عمر " سهام "، سأصارحكم؛ أريده ولدا كي يرث جمال أمّه و شجاعة أبيه.

ذهبت صباح يوم السّبت باكرا إلى المركّب، قرّرت أن أمارس رياضة الجري قليلا و أنا المسكين الذي أنهكه الكمبيوتر و شاشته، هذه الآلة المحبوبة التي تأخذ منّي عمري كما آخذ أنا جرعات من فنجان القهوة، أخبرني أحدهم مرّة أني أبدو للعيان و كأني شخص مجنون، كان هناك " عدلان " الحارس الذي يشجعني دائما على الرياضة و ينسى المدخن المسكين نفسه، 20 دقيقة فقط كانت كافية لتلف الحذاء القديم الذي كان لدي منذ 10 سنوات، كنت محتفظا به طوال تلك المدة في مكان ما في المنزل و الآن لما انتعلته حدثت الكارثة، لقد أكملت باقي الوقت حافي القدمين، و حين اقتربت السّاعة من 30 : 08 كنت قد أخذت حماما خفيفا بالماء البارد، حرارة الجوّ ساعدتني على هذا.

كانت السّاعة تشير إلى 12 : 09 لمـّا حضرت " سهام " مع أختها " فلة "؛ ثم جاءت الأخريات : " ليلى "، " منال "، " أماني " و " أسماء ".

نحن الآن في تربّص مغلق، أي إيقاف جميع التّدريبات على الأناشيد التي لا تدخل ضمن الألبوم، بتعبير آخر لقد خرجنا من مرحلة " تأهيل الذات " إلى مرحلة " تحقيق الذات "، لقد بدأنا بالزّحف شيئا فشيئا خارج الشرنقة، بأول أنشودة هي " الطفل الأسير "، كلمات و ألحان الأستاذة " أسماء قلاوون "، طبعت عدّة نسخ منها لأوّزعها على عضوات الفرقة، مختارا مقدّمة لها من شعر الأستاذ " أديب عابد الرنتيسيّ ".

لا أستطيع تقدير الوقت اللاّزم لتحضير أيّ أنشودة بالضبط، لإتقان ما يجب إتقانه، حين انتهت الحصّة الأولى كانت " منال " و " سهام " و " فلّة " قد حفظن اللّحن كاملا، هو لحن بسيط لموضوع شائك مرتبط بشرفنا الضائع هناك في الأرض المقدّسة، " أماني " و " أسماء " يمكن لهما الاندماج في المجموعة، أمّا " ليلى " فيُسمع صوتها نشازا، ساعة و نصف لا تعتبر كافية للجميع، هي الخطوات الأولى و من منّا لم يقع في خطواته الأولى ؟.

في الحصّة الثانية استطعنا بتوفيق من الله التحكّم في 03 توزيعات إيقاعيّة، و استطاعت " منال " و " سهام " الصّعود في السّلّم الموسيقيّ 08 درجات كاملة، لإعطائنا الصّوت الحادّ، تبنّينا أسلوب " سهام " في الآهات، أفكّر في إدراج مرافقات ثلاثية تكون خلفيّات، إنّ التوزيعات التي نتدرّب عليها الآن هي توزيعات المستوى الأول، حتى يتمّ تقرير التّوزيعات النهائيّة، التي سيعمل عليها إن شاء الله المهندس " فريد . ي ".

بعد إكمالنا للأنشودة الأولى؛ وجت نفسي في مشكلة، ليس لديّ من الأناشيد ما هو جاهز للعمل عليه من طرف الفرقة، لم يرسل لي الملحّن " عبد الرّؤوف " شيئا، و تأخّر الأستاذ " جمال . س " أيضا، و يجب أن أكمل العمل، تذكرت أنّ لي أنشودة كنت قد لحّنتها منذ 09 سنوات، أعطاني إيّاها الأستاذ " جيلالي . ف "، حملت عنوان " تواشيح "، قدّمتها للبنات في انتظار أن أحصل على الكلمات كاملة، و فعلا كان كل شيء لدي بمراسلة من إدارة صفحة العارف بالله الشيخ " أبو إخلاص برهان الدين "، من علماء السّادة الصوفية، هي قصيدة قديمة و لكن الله لا يتأخر عنه شيء.

توقفنا عن العمل بسبب انطلاق اختبارات الفصل الأول، ثم أكملنا تدريباتنا، إنضمت إلينا إحدى الموهوبات الجديدات " كوثر بلقاسم "، أحضرتها " ليلى " مع صديقاتها، بدا صوتها رخيما و لكنه ما زال في طور التطور، كانت تريد الانضمام لفرقة " سفيان . م "، غير أنها غيّرت رأيها و أحضرت ملفّها كاملا، و مع هذا بدت متردّدة و كأنّها في فترة تجربة.

قبل شهر نوفمبر 2014 لحّنت أنشودة جديدة للشّاعر " عبد الرحمن العشماوي "، حملت عنوان " غب يا هلال "، عملت فيها بكلّ جهدي من أجل أن أكون في مستوى هذا العملاق، لست ملحّنا و لكن للظروف أحكامها علينا أحيانا.

إشتريت كمبيوترا محمولا من طراز " DELL "، و لو أنّ الطراز الذي أخبرني به صديقي في العمل " محمد . ج " أنه متوفر عند بائع في منطقة " LA COTE " فرصة ضاعت مني، تحفة من طراز " XPS " ثمنه في السّوق 18 مليونا من السّنتيمات، أي 180000 د . ج، و الله يرزق من يشاء.

أعلمت الشاعر " عبد الرّحمن العشماوي " عبر صفحته في الفايس بوك بما فعلت، و أخبرت " فريد . ي " بتحضيراتي فشجّعني، كما أعلمت الشاعرة " صبيرة قسامة " بأني قد لحّنت قصيدتها " يا موكب البشرى "، التي قد تكون بإيقاع هندي، المهمّ أني وضعت كل من لهم صلة بالموضوع في الصّورة.

ثمّ كانت النظرة تجاه الأناشيد غير العربيّة، إلتقيت مع صديقي القديم، الأستاذ " محمد . ج " الذي يشتغل الآن أستاذا للّغة الإسبانيّة، و أخبرته بما أنوي القيام به، فقال أن لديه شخصا شاعرا باللّسان الإسباني، و لكنه يطلب مالا مقابل قصائده، قلت أنه عليه بالانتظار قليلا حتى أرى ما يمكن فعله.

في 13 ديسمبر 2014 نشب خلاف حادّ بيني و بين المكلّفة بالتّأطير لدى ديوان مؤسّسات الشباب، أرادت أن تُدخل بعض البنات إلى حصّتي، كنت أحضّر للألبوم بما يتطلّبه الأمر من تركيز و تحفظ، ثم أجد في القاعة عناصر غرباء لا ينتمون للفرقة و لا للنادي ؟، و هؤلاء سيشتتون انتباه عناصر الفرقة ؟، رغم أنهنّ بنات في سنّ بناتي.

في الواقع لا يهمّني من البنات من تحضر حصّتي، بالعكس يمكن استغلال هذه النقطة كإشهار لما نفعله، و لكن من الأفضل أن يكون كل شيء في موضعه، كي لا تحدث فوضى، حينما كنّا في الكنيسة القديمة؛ كانت بعض العناصر من نشاطات أخرى تدخل للحصّة و لو بصفة عرضيّة، لاحظت أن ذلك يؤثر سلبا على التركيز العامّ، هناك من البنات من لا

تريد أن يشاهدها أيّ شخص و هي تتدرّب مهما كان جنسه، لحساسيّات متنوّعة، و هذا حقّ من حقوقها لا أستطيع منعها منه.

أعترف أننا أحدثنا فوضى كبيرة و لكن أحيانا هناك أشياء تحدث و نحن أمامها مقهورين، كدت أتشاجر مع المدير " كمال . ج " أمام الغضب الذي اعتراني فجأة، أحسست أنّ هؤلاء البنات مظلومات حين ألغيت الرّحلة الترفيهيّة التي كانت مقرّرة في العام الماضي؛ و لم تعتذر منهنّ و كان من اللاّزم بأيّ حال من الأحوال تقديم اعتذار رسميّ؛ يجب أن تعتذر لهنّ مباشرة عن الأضرار النفسيّة التي تسبّبت بها لهنّ، ثم ها هي الآن تحاول فرض عناصر علينا بقوّة مركزها، بل أكثر من ذلك؛ تهدّدني بأني لن أضع قدمي هنا من الآن و صاعدا، كنت أستطيع أن أتعامل معها بطريقة فيها كثير من النفاق مثلما يفعل آخرون سيكونون في موضعي، و أن أربح معها علاقة ذهبيّة؛ خاصّة و أنها ستكون مرشحة لأخذ مكان المدير مستقبلا.

هذه الفوضى التي حدثت كانت ضروريّة لفرض قواعد اللّعبة الجديدة، لن أسمح من الآن فصاعدا لأيّ عابث أن يلعب في ساحتنا، سنصبح لقمة سائغة يتسلّى بها كل من هبّ و دبّ، الكلّ لديه حساباته الخاصّة، و حين تسقط سيتخلّ عنك الجميع، هو التاريخ يكرّر نفسه.

أصلح مدير المركب الرّياضيّ الجواريّ " كمال . ج " بيننا و كأنّ شيئا لم يكن، إحتوى الموقف تماما عندما استدعانا في مكتبه، ليطرح كلّ طرف وجهة نظره، و الشيطان صيّاد ماهر لمثل هذه الظروف، هو الذي أوقع بيننا استنادا إلى نوازع النّفس، فقد كان الجميع تحت الضغط من أجل تحضير حفل بمناسبة مظاهرات 11 ديسمبر 1960، كان البعض ينتظر مني المشاركة، غير أني كنت أنظر لأبعد من ذلك، كنت أنظر إلى الأفق بتسجيل أول ألبوم للفرقة و النادي ثم تأتي المشاركات به، لا أن نبقى حبيسي المناسبات ثم يمرّ الوقت و يمرّ و لمّا ننظر للخلف لا نجد أيّ شيء نتركه للأجيال القادمة.

أحيانا؛ يعجبني " كمال " لأنّه يواجه الجميع بوجه واحد، و أدعو الله أن يبقى هكذا، كنّا في الكنيسة القديمة في عشّ من المنافقين، الجميع يريك أسنانه البيضاء، و وراء ذلك مصالح تُقضى في الخفاء لا يعلمها إلا خالق هذه الأسنان.

المسابقة الإنشاديّة الأولى 2014

كانت السّاعة تشير إلى حوالي 00 : 23 ليلا؛ حين أتتني فكرة إنشاء مسابقة إنشاديّة بجوائز تشجيعيّة معقولة، أسميتها " المسابقة الإنشاديّة الأولى 2014 "، بمناسبة الفاتح نوفمبر لهذه السّنة، كنت قد فكرت مبدئيّا من قبل في مشروع كهذا، و لكن المعوّقات التي واجهتني صدّتني عن تنفيذ مشروعي.

في طريق عودتي من العمل مساء يوم الخميس 04 سبتمبر 2014، أتممت كل شيء تقريبا، و لم يبق سوى بعض التفاصيل الصّغيرة، قلّصت من نسبتها قبل صلاة المغرب، بقي الآن اختيار الجوائز المناسبة، و اختيارها مرتبط بالميزانيّة، قلت في نفسي : " يجب ترتيب الأولويات، فالألبوم أولى من أيّ شيء آخر، ثمّ التجهيزات التي أحتاج إليها ".

أسعار الجوائز في الجزائر العاصمة مرتفعة جدا، أردت أن تكون الجائزة الأولى لوحا تفاعليّا محمولا، فوجدت مبتغاي في ورّاقة " مزياني " بثمن 10 آلاف د . ج، و الجائزة الثانية مصباح كهربائي رفيع، أمّا الجائزة الثالثة فكانت آلة حاسبة رفيعة، كانت هذه نصيحة ابنته المولوعة بالموسيقى.

كلّفتني المسابقة 15000 د . ج، دفعتها من مرتّبي الخاصّ، فليس للمركّب الرّياضيّ الجواريّ ميزانية.

يوم السّبت 27 سبتمبر 2014 أخبرت مدير المركب الرّياضي الجواريّ بما أنوي القيام به فرحّب، شرحت له الأمر على أنه مسابقة فكريّة في الإنشاد للأطفال من سنّ 10 سنوات إلى 15 سنة، بمناسبة الفاتح نوفمبر، عيد الثورة الجزائريّة، قلت أنّي سأقدّم تقريرا مفصّلا في الأسبوع القادم إن شاء الله.

يوم الخميس 02 أكتوبر كان كلّ شيء جاهزا، كلّ الإعلانات مختومة و ممضية، لكن قبل ذلك بيوم واحد فقط كانت الجوائز لديّ في المنزل، لا أستطيع تنظيم مسابقة و الجوائز في علم الغيب، تجاربي السّابقة علّمتني ألاّ أثق في أحد.

كانت السّاعة تشير إلى منتصف النهار حين ذهبت إلى إكمالية " العقيد شابو " لتسليم أسئلة المسابقة إلى الأستاذ " سفيان . ب "، و كنت قد وضعت نسخا منه تحت تصرف إدارة " CSP "، كما سلّمت نسخا إلى أستاذة تقطن في حي " بني مويمن " لتوزّعها في مؤسّستها التعليميّة.

حتى تاريخ 03 أكتوبر كانت 03 إكماليات تنتظر التسليم.

في اليوم التالي نشرت على صفحتنا في الفايس بوك؛ و أرسلت الخبر إلى جميع الصّفحات المهتمة، كصفحة " أخبار العفرون "، غير أنّ إدارة هذه الأخيرة لم تنشر شيئا رغم تكرار المراسلات، و لم نجد تفسيرا مقبولا؛ فأوقفنا جميع التعاملات معها لإشعار آخر، طريقة تصرّف غير مقبولة منهم البتة، إمّا أن ينشروا لنا أخبارنا على اعتبار أنهم يقولون أنهم يشجّعون الثقافة؛ أو يخبرونا عن السّبب.

ثم كـانت صفحتنا على التويتر، أي بعبارة أخرى تم تغطية المساحة الإلكترونيّة المعروفة، أمّا مسألة المراجع فهي متوفرة على شكل كتـب إلكترونيّة بروابط صالحة، و طبعت منها نمـــاذج أحادية وضعتها في المكتبة البلديّة لدى الأستـاذ " محمد . ب ".

في المنزل غلّفت علبة صغيرة الحجم و كتبت عليها عبارة " المسابقة الإنشاديّة الأولى 2014 "، و وضعت شعار النادي " قندس "، و ألصقتها في خزانة حديديّة في مكتب الاستقبال بشريط لاصق من النّوع الكبير.

في الأسبوع الأخير من انتهاء تاريخ المسابقة؛ كانت هناك 15 ظرفا بريديّا في العلبة، 13 منها في قائمة النّاجحين، قال أغلب الأطفال أنّ الأسئلة صعبة جدّا، فلم يستطيعوا الإجابة، بل منهم من بقوا مذهولين أمامها، على كلّ حال؛ كان يجب إعطاء شعور أكثر ترفا للعمليّة، كانت حفلة توزيع الجوائز محتشمة، يوم السّبت 01 نوفمبر على السّاعة 30 : 14، قمت بقرعة أمام الجميع، و كان المنفّذ " دنيا زاد " التي كان من المفروض أن تأتي معي في الرّحلة الملغاة، و طفل صغير كان معها، لتسفر النتائج عن التالي :

- الجائزة الأولى : سيد أحمد أوغريد.
- الجائزة الثانية : إكرام عشاب.
- الجائزة الثالثة : وفاء أوغريد.

بقراءة مبسّطة أخرى؛ فازت بالجائزة الثالثة المنشدة التي كانت في فرقتنا، و فاز أخوها باللّوح التفاعليّ المحمول، في حين ذهبت الجائزة الثانية إلى تلميذة خارج النادي، بعد إلغاء " خولة قوادري " لأنها غابت و لم يكـن هناك من ينوب عنها، غيابات من هذا النّوع تضر بمصداقيّة المسابقة ككلّ، فلو غاب الجميع لكانت القرعة غير شرعيّة في نظر البعض أو الكثير منهم، و عليه تمّ اتخاذ هذا القرار.

إنتقالي إلى المسكن الجديد

ما زال إلى الآن يبدو الأمر و كأنه حلم، في ظرف 08 ساعات تغيّر كلّ شيء، في ظرف 08 ساعات تترك حياة خلفك امتدادها أكثر من 30 سنة، لتستقبل ما كان الجميع ينتظره بشغف، و ما هو في الجزائر أزمة حقيقيّة بكافّة أبعادها.

في الأصل كنّا ننتظر هذا منذ سنة 2007، ليتأجّل كل شيء إلى تاريخ غير معلوم، بلديّة " العفرون " يتغيّر مجلسها كل 05 سنوات، و تتغيّر مع كلّ مجلس فلسفة الحكم و التّسيير، تزوّج بعض الشباب أملا في الحصول على سكن مستقلّ، ثم تبخّر كل شيء إلى غاية 2014 حين أتت لجنة إحصاء جديدة لتجدنا أكثر من 400 عائلة ستنتقل إلى حي جديد، عمارات من 06 طوابق في المدخل الغربيّ للمدينة على الطريق الوطنيّ رقم 01، المتجه إلى مدينة " وهران ".

كنت مع " عبد القادر . ب " المسؤول السّابق عن المركب الثقافيّ البلديّ، الذي تحوّل الآن إلى ملحقة للبلديّة يتمّ فيها التّصديق على مختلف الوثائق الإداريّة؛ حين قلت أنّي أريد العودة إلى المنزل لفترة وجيزة، دخلنا على الطريق السيّار الذي يشقّ الجامعة، ثمّ توقّف على قرابة 50 مترا من المنزل، وجدت مجموعة من الأطفال أخبروني أنّ هناك لجنة إحصاء أتت و لم يجدوا أيّ شخص في الدّار، كان والدي حينها مشغولا عند عمّتي بمرض جدّتي، لم أكترث كثيرا لأنه منذ 2007 و هذه الأحداث تسري دون أن يعرف لها أحد نهاية أو مخرجا، بيد أنّ ذلك لم يمنعني من تحضير الملفّ المطلوب لإيداعه على مستوى المصلحة المعنيّة، ثم نسيت كلّ شيء.

ظهرت إشاعات تقول أنّ موعد ترحيلنا سيكون قبل رمضان، ثم في رمضان، ثم سكتت جميع الأصوات لتنطلق إلى تحديد تاريخ 11 أكتوبر 2014 كموعد رسميّ، كنت أخشى أنّه سيلغى لسبب من الأسباب.

نملك أرضا اشتريناها منذ 40 سنة، في مكان كان ضاحية من ضواحي مدينة " البليدة "، الآن يتّسع كلّ شيء، على هذه الأرض خطّطت لبناء فيلا صغيرة مع عائلتي، غير أنّ الآراء المختلفة و المتناقضة جعلت مشروعي الصّغير يسير بخطى سلحفاة، ثم توقف كلّ شيء بوفاة جدّتي، كل ذلك جعلني أميل لمصلحتي الشخصيّة أكثر ممّا مضى، ما فائدة التفكير في لمّ شمل العائلة و أنا عاجز على لمّ شؤون نفسي ؟، كل واحد أصبح ينظر للمسألة من زاوية ضيّقة، و أنا الوحيد الذي أفكر في الجميع و أضع منظارا مكبّرا، عمّتي مهتمّة بزوجها و ابنتها، و والدي يعرقل الوضع بتفكيره الشبيه بخرسانة الإسمنت المسلّح، من دفع الثمن في النهاية هو أنا، 08 سنوات ذهبت أدراج الرّياح، قبل وفاة جدّتي بحوالي 04 أشهر؛ كدت أفجّر الدّار بمن فيها في لحظة غضب، كان ذلك يوم الثلاثاء صباحا حين أتى والدي مع جدّتي للمنزل ثم أخبرني أنهم يحضّرون لبيع الأرض بما تحويه من بناء غير مكتمل و أشجار، تملّكتني حالة هستيريا غريبة، في لحظة غضب كدت أن أحوّل كل شيء حولي إلى كتلة من نار، ففي موقف مماثل يلزمك الكثير من القوّة للمحافظة على أعصابك، لقد أدرك حينها أني يمكن أن أفعل أيّ شيء للحفاظ على كل شيء، من المفروض الاّ أقول هذا الكلام على الإطلاق؛ فشخص يجلس في مكاني؛ سيكتب كلّ ما هو جميل، و لكن الحقيقة حقيقة بسكّرها و علقمها، ما فائدة أن نكتب ما ننتقيه من أحداث ؟، ثمّ ليعلم الناس أننا نحن الإنشاديّون لنا مشاكلنا الخاصّة و لنا أخطاؤنا التي نكشفها للآخرين؛ لا لشيء سوى ليتداركوا

الأوضاع مستقبلا.

لم أستطع أن أتمالك نفسي و أنا أرى أمام عينيّ كلّ شيء يضيع من يدي، كلّ ما أخطط له يتحوّل إلى رماد متناثر بين عشيّة و ضحاها، الجهل بتحوّلات الأمور هو ما جعلنا في وضعيّة مماثلة، لسنا فقراء و ما كان الفقر عيبا، و لكن إذا كانت كلّ الإمكانيّات متوفّرة و تجد نفسك مشلولا عن القيام بأيّ شيء؛ فما فائدة ما لديك ؟.

ما فائدة امتلاكنا لأرض لا نستطيع إنشاء أيّ مشروع فوقها ؟، و إذا كانوا يريدون بيعها؛ فهل المال أحسن منها ؟، ثم من يضمن أننا سنبتاع أرضا أخرى ؟، و إذا كان لا مناص من البيع؛ فهل نبيع الجديد أم الهش ؟، هل نحتفظ بمسكن قديم يرجع تاريخ بنائه إلى سنوات الخمسينيّات من القرن الماضي يمكن أن ينهار في أيّة لحظة ولا سيما عند حدوث هزّة أرضيّة مثل التي كانت في 2003؛ أم نحتفظ بالأرض التي هي و ما عليها ملك لنا ؟!.

للإجابة على هذا السّؤال لا يجب أن تكون حاصلا على شهادة جامعيّة عليا، لا يُشترط أن تكون حاملا للماجستير أو للدّكتوراه، هو العقل و المنطق الذي يفرض التخلّص من سكن هشّ لنا فيه الأبواب و النوافذ، و مجموعة من الجرذان تزورنا في أشهر الشتاء حين يقلّ الغذاء.

كنا نسكن في هذه البيوت التي هي في الأصل محتشدات بناها الاستعمار الفرنسيّ لخنق الثورة، و لكن يجب أن تعرفوا كيف بدأت القصّة ؟.

تذكرون ما أخبرتكم به سابقا في الجزء 01 ؟، قصة استشهاد جدّي و فرار جدّتي من بطش العسكر الفرنسيّ، تاركة ورائها كلّ شيء ؟، في البداية توجّهت إلى الجزائر العاصمة عند عائلتها لعلّها تجد لديهم الأمن، تخلى عنها أكثرهم، زوجة مجاهد من جبهة التّحرير معناه الإعدام لكلّ من يجدونها لديهم، بل لكلّ من يتحدّث إليها، كان الجنود الفرنسيّون يشكون في كلّ شيء، لم تكن المشكلة فيهم كبيرة بقدر ما كانت في الخونة الذين يحقدون على الشّرفاء، و يكيلون التّهم لأبناء جلدتهم، أمّا الفرنسيّون فتقريبا لا يعرفون كثيرا ما يحدث و إن تشدّقت مخابراتهم بأنها تعرف كل شيء.

لقد ساعدت العاصمة في إخفاء بعض التفاصيل، مدينة كبيرة لا يهتمّ الناس فيها كثيرا بما حولهم، عكس القرية، كان أبي يشتغل في التّجارة مع خاله، إلى أن أتت فرصة الحصول على سكن مؤجّر، كانت فرصة من ذهب خالص في مدينة " العفرون "، مكان قريب من مسقط رأسه، لقد ساعدت أجواء المنطقة على الاستقرار، خاصّة مع اقتراب موعد الاستقلال، ثم توتّر الوضع، حكى لي ذات مرّة كيف كان أعضاء منظمة " OAS " الإرهابيّة يسيرون في الشارع الرّئيس للمدينة و يطلقون النّار على الأهالي رجالا كانوا أم نساء أم أطفالا لمّا تتسنى لهم الظروف، عمليّات كهذه أدّت إلى قتل عشرات الجزائريّين بدم بارد و توليد حالة من الفوضى و الهلع بين السّكان، مشكلة الأروبيّين مع سلطات بلادهم و ليس معنا، حكت لي مرّة جدّتي أنّ ابن التي كانت تشتغل عندها كان أحد عناصر هذه المنظمة الإرهابيّة، و كم هي المرّات التي حاول التخلّص منها بإطلاق النار عليها من مسدّسه الشّخصيّ، هربت في الأيّام الأخيرة قبل أخذ أجرتها حين

تأكّدت أنه سيقتلها، فالأوضاع تتأزّم بشكل قاتم، و أصبح الأوروبيّون الذين ينظرون للرّئيس الفرنسيّ " ديغول " نظرة خائن باع درّة شمال إفريقيا للعرب؛ يفجّرون كلّ شيء عندما تأكّدوا أنّ أيامهم أضحت معدودة أكثر من أيّ وقت سابق.

مرّت السّنوات و تحوّل السّكن الممتاز الذهبيّ إلى سكن هشّ عمره أكثر من 50 سنة، و مع كل سنة يترسّخ الاعتقاد عميقا بضرورة مغادرة المكان.

بدأ الجيران في هدم منازلهم يوم الخميس 09 أكتوبر، ثم زادت الحركة يوم الجمعة و لا سيما بعد الصّلاة، خليّة نحل الكلّ فيها يعمل، بالنسبة لنا كان كل شيء جاهزا للنقل، كانت بناتي تنتظرني في مقرّ التّدريب يوم 11 أكتوبر 2014 موعد الترحيل، لم أشأ إلغاء الحصّة لأني خشيت إلغاء العمليّة كما في السّابق، ظننت أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؛ غير أنّ المشاكل تضخّمت بمرور السّاعات، منذ السّاعة 00 : 04 و نحن مستيقظون ننتظر الشّاحنات التي ستنقلنا للعمارات الجديدة، أشرقت الشمس و لم نسمع شيئا ثمّ حضرت قوّات الدّرك و قبلها كانت عربة الحماية المدنيّة أمام باب المقبرة، حدثت بعض الفوضى من طرف الذين رُفض ترحيلهم، أحرقوا عجلات السّيارات في وسط الطريق، تدخلت قوّات مكافحة الشغب لتعود المياه إلى مجاريها بسرعة، إعتمد بعض الجيران على مركوباتهم الخاصّة لنقل الأثاث، اتّصل بي من المركّب الرياضيّ الجواريّ من يستفسر عن سبب تأخّري عنهم، فاعتذرت عن المجيء، كنا ننتظر حضور الشّاحنات التي من المفروض أن تكون هناك، لنتفاجأ ببعض السّيّارات من الحجم الكبير أجّرتها البلديّة لعمليّة الترحيل، عدد قليل لا يكفي حتى ربع المرحّلين.

كان أعوان مصلحة الكهرباء و الغاز هناك يطوفون علينا لأخذ كميّة استهلاكنا للكهرباء، ثم قطعوا التيّار آخذين العدّادات، حين يريد هؤلاء العمل لا يستطيع أحد أن يوقفهم، و لكن حتى تلك اللحظة لم نستلم قرارات الاستفادة من السّكنات الجديدة، أحضرها شقيق أمين البلدية ثم بدأ يوزّعها هنا و هناك، يدخل إلى دار ثم يتخطى مجموعة من الدّيار ليدخل لأخرى، ممّا جعل السّكان في حالة من الرّيبة و القلق، لماذا يفعل هذا ما دام الجميع سيذهبون ؟.

دخل إلى جارنا " عز الدّين . م " فدخل والدي وراءه و هناك أعطاه قرار الاستفادة، لنشرع في نقل الأثاث، و أيّ أثاث ؟، هاتفت من أعرف أن لديهم عربات نقل تصلح على الأقل للنقل فاعتذر الكلّ بحجّة أنّ الوضع لدينا غير آمن، ثم وجدت صديقي القديم " محمد "، من أيّام الجامعة بسيارته ينقل بعض الأمتعة، قلت له أني أريده حين يفرغ، فقال أنه سيوصل هذا ثم يأتي إليّ، و لكنه أرسل أخاه بشاحنة كبيرة، و هنا نشبت مشاجرة مع والدي، أكدت عليه أن يتخلىّ عن كل شيء غير ذي فائدة، يبيع ما يبيعه للتجار المتنقلين الذين حضروا باكرا بسياراتهم؛ و يترك القسم الآخر، ما دامت الجرافة ستدمّر كلّ شيء، و لكنه أصرّ على أخذ كلّ شيء، مهما كان حجمه و نوعه، قرار مثل هذا سيجعلني أنقل نصف الأشياء التي هي في الأصل خردة، سنذهب إلى مسكن جديد، عمارات راقية و هي فرصة للتخلّص من كل شيء غير صالح، لست مجبرا على أخذ مساكن جيّدة للفئران معي، ثم كيف سأراقب كلّ هذه الأشياء ؟، و أنا وحدي ليس معي أحد ؟!، فأنا أعيش مع والدي منذ طلاق والدتي منذ أكثر من 30 عاما، و جدّتي التي كانت تزورنا من فترة لأخرى فارقتنا إلى العالم الآخر، أحيانا أقول في نفسي أنّه يتوجّب عليّ الزواج بامرأتين أو أكثر كي أعوّض التّأخير الذي أنا فيه.

شحنت ما استطعت شحنه؛ و أخذت معي قرار الاستفادة و ذهبت إلى الحيّ الجديد، كانت الجرّافة تهدم كل منزل تجده فارغا كي لا يسكن فيه أيّ دخيل ثم يطالب بترحيله هو أيضا، نصف الأثاث معي فقط في الشاحنة، و النّصف الآخر بقي معه ينتظر وسيلة نقل أخرى، وجد سيارة من الحجم الكبير التي أجّرتها البلديّة لنا، فأتى بعد حوالي ساعتين و ما كانت السّاعة تقارب 00 : 14 حتى كان المكان الذي عُمّر منذ 1958 عبارة عن صحراء محاطة بسياج.

نتيجة لتلك الفوضى؛ سُرق مني الكمبيوتر المحمول الذي كنت أستعمله، وضعنا الأثاث في مساحة اخترناها ككلّ الجيران، كان قرار الترحيل لديّ و عليّ أن أذهب لمكتب الترقية العقاريّة الذي فتحوه خصّيصا لنا في شقة فارغة من أجل دفع مبلغ 72000 د . ج؛ ليعطوني مفاتيح الشقة، و في المكتب هناك عشرات الأشخاص ينتظرون أدوارهم، مأزق أنقذني منه صديقي " عاشور . م "، كنت ما زلت في الشاحنة حين هاتفني يستفسر عن مكاني، و لما التقينا أعطيته مبلغ 300000 د . ج و قلت : " هذه أمانة خذ منها ما تريد و أرجع لي الباقي "، كنت أنتظر والدي الذي ما زال ينقل الأثاث الذي بقي، ثم حضر عاشور قائلا : " أين أنت كنت أبحث عنك، ها هي المفاتيح و عقد التّخليص، إحذر أن تضيّعه مهما حصل ".

أحسست أنّ هذا الشخص يحبّني، لماذا يفعل معي كلّ هذا ؟.

إختفى قطّي في هذا اليوم، آخر مرّة شاهدته فيه كان تحت ما يشبه الخزانة، ثمّ خرج و لم يعد، من المؤكّد أنه ذهب مبتعدا عن تلك الفوضى، و لكن حين يعود لن يجد المنزل الذي اعتاد أن يدخل إليه من النافذة.

على كلّ حال؛ ما أفكّر فيه الآن هو إحضار امرأة، ما أفعل بالقطّ ؟!.

أنا الآن أسكن في الطّابق الثّاني عمارة رقم 13 في المنزل رقم 05، فتحت الباب مبسملا، عانقني ثمّ ودّعني منصرفا لشأنه.

" عاشور " هو شقيق " نور الهدى " الطفلة التي كانت منشدة في فرقة " الإيمان "، متزوّج و أب لمولودين، هو أيضا لا يتّفق مع أبيه في كثير من الأشياء، بعد أسبوع انتقل إلى شقّته الجديدة ورائي في العمارة رقم 15، و كأن الله أراد بهذا شيئا لا أعلمه.

من حين لآخر ألتقي معه؛ يكون في المقهى فينايديني، أحيانا أسمعه و أحيانا لا أسمعه، فيما بعد يخبرني أنه ناداني مطوّلا و لم ألتف إليه، و ربما سمع كلّ النّاس ندائه إلا أنا، أخبرني ذات يوم أنّ الخردة التي تضايقت منها هي ذكريات سعيدة لأبي كنت أريد التخلّص منها، و كلّنا نريد الاحتفاظ بذكرياتنا السّعيدة، بل نحارب لأجلها، و كلّما حاربت من أجلك أحببتك أكثر !.

بحثت عن عمّال يساعدونني في نقل الأثاث دون جدوى؛ الكلّ مشغول، حتى أني استنجدت بصديقي " محمد . ل " كي يصبّ في حسابي الهاتفيّ قليلا من الوحدات لأستطيع الاتصال بمن أريده، فكان ما أردت بصعوبة كونه متابع شغوف

لمباريات الفريق الجزائري، و كان في ذلك الوقت أمام شاشة التلفزيون يتابع إحدى أهمّ المقابلات في كرة القدم.

إستهلكت كثيرا من الشّاي، و بدأت أعصابي في التأجّج ساعة بعد ساعة كالبركان الذي يوشك على الانفجار، و أمام الفوضى التي تحيط بنا لا نملك سوى مسايرة الأوضاع.

05 ساعات كانت زمن نقل الأثاث إلى الشقّة، التي وجدناها مملوءة بالتراب كي لا أقول الغبار، و لا ماء للتنظيف، أسبوع كامل لم أذهب فيه للعمل، كان البعض يشتكي من تسرّب الغاز، و الآخر من تسرّب المياه من الأسقف، و الآخر من قفل الباب الذي وجده مكسورا، و الآخر من إطارات النوافذ غير المكتملة، المهمّ أن لكلّ واحد من المرحّلين مشكلة يعاني منها، دفعت لسائق الشاحنة 7000 د . ج، و لصديقي " محمّد " 5000 د . ج لقاء مساعدتي في نقل الأثاث و الأمتعة، أخبرته برغبتي في التّعامل مع سبّاك جيّد، فقال أنه يعرف شخصا خبيرا أفنى عمره في المهنة هو عمّي " أحمد " الذي ركّب سخّان الماء و خزّانا بسعة 500 ل.

يوم الأربعاء 24 ديسمبر أوّل هزة أرضيّة أشعر بها في المنزل الجديد، يا سلام؛ كلّما تهتزّ الأرض تحتي أتذكّر أني حيّ أُرزق، من المفروض أن نطمئنّ لأنّ البناء حديث، لكن من يدرينا أنّ من بناه قد احترم المعايير القانونيّة في الإنشاء ؟.

قالوا لنا أنّ الأتراك هم من بنوا هذه العمارات، قلت في نفسي : " إذا حدث شيء؛ فسيكون المسؤول الأوّل هو مراد علمدار، و فيما يبدو أنّه إنسان ملتزم، معنى ذلك أنّ الخلل يكون في البنّائين الجزائريّين الذين لا ينفذّون جيّدا التعليمات ".

مشكلة كبيرة في الجزائر تلكم المنشآت التي تنهار من حين لآخر بسبب الغشّ في موادّ البناء، ما أصاب النّاس في زلزال ولاية " بومرداس " يبثّ الرّعب في قلب أشجع الشّجعان، عمارات كاملة سقطت على رؤوس ساكنيها، تلكم الرّؤوس التي لم تكن تفكّر يوما أنها ستموت تحت الأسقف التي طالما كانت لها الأرض و السّماء.

أتذكّر طفلا أرسلته والدته ليشتري لها بعض الحاجيات من دكّان قريب، و حين رجع لم يجد العمارة التي خرج منها، وجد كومة من الإسمنت و الآجر و الغبار المتناثر، فجنّ المسكين فورا.

حين يغضب الله منّا فما على الطبيعة إلاّ التّنفيذ.

مشكلتان في الأفق

بدأت العطلة الشتويّة يوم الخميس 18 ديسمبر 2014؛ أردت أن أضيف حصّة أخرى في وسط الأسبوع، لكن عدلت عن الفكرة في اللّحظات الأخيرة، قد تذهب واحدة أو اثنتين إلى مكان ما و من الأفضل ألاّ أضعها في حرج، خاصّة " أسماء "، ثم إنّ تحضيراتنا تسير على ما يرام، يمكنني أن أقيّم درجة الجهوزيّة بحوالي 80 أو 90 ٪؛ و عليه يجب ألاّ أتعجّل في الحصول على نتائج لا يمكن الحصول عليها بين ليلة و ضحاها، بدأ الملل يتسرّب للبنات، هنّ بحاجة الآن لما يرفع المعنويات، أعرب " سفيان . م " عن نيّته في إنشاء فرقة للتّغريد و المسرح، الوقت متأخّر لذلك، بقيت 04 أشهر فقط ثمّ ينشغل الجميع في الاختبارات، نفس المشكلة سنقع فيها، يستنزفون طاقة البنات ثم لا مشروع جادّ يلوح في الأفق، لا رؤية استراتيجيّة و لا هم يحزنون، و الضّحيّة هم الأطفال مثلما هي العادة.

نفس السّيناريو الذي حدث أيّام كنّا في الكنيسة القديمة سوف يتكرّر الآن في هذا المكان، إنشاء عدّة فرق للإنشاد و التغريد و المسرح ثمّ ما تلبث أن ترى تغيّب المشرفين عليها بحجج متنوّعة، و بعدها تبدأ مرحلة غياب الأطفال، و يأفل كلّ شيء في نهاية المطاف.

قرّرت أنّ أيّة واحدة تغادر النّادي رسميّا؛ لن تعود إليه، و إذا عادت تُلغى جميع امتيازاتها كأنّها تبدأ من جديد، يجب أن تتحمّل كلّ واحدة مسؤوليّتها، لسنا في لعبة، و لن نسمح لأحد أن يتلاعب بنا، و وضعنا لا يسمح أبدا بالاستهتار.

نحن الآن في 20 ديسمبر و لدينا أنشودتين جاهزتين، " الطفل الأسير " و " الله قل "، بدأنا في حصّة هذا السّبت في التدريب على أنشودة " غب يا هلال "، حضرت " منال " بعد غياب دام شهرا كاملا، و غابت " كوثر " و " أسماء "، بعض الملفّات غير موجودة، أخبرتني " سهام " أنها جاءت الثلاثاء الماضي و معها ملفّ تسجيلها و لم أكن موجودا، أخبرت الجميع أنّ جميع الملفّات يجب أن تكون جاهزة السّبت القادم، و اتخذت قرارا صعبا بيني و بين نفسي و هو أن أوقف نهائيّا كل واحدة لا تحضر ملفّها كاملا، المسألة بسيطة جدّا؛ شهادة ميلاد و صورتين، و نحن في آخر السّنة و كلّ شبابيك الحالة المدنيّة التي تُستخرج منها هذه الوثائق فارغة، و أنا من سيدفع مبالغ التّأمين.

إذن؛ أين هو الإشكال ؟.

الخطّة البديلة لتسجيل الألبوم

كان يوم الأربعاء 24 ديسمبر 2014 يوم التقيت مع " ضياء "؛ صديق " هشام " و زميل سابق كان ينشط في المركب الثقافي البلديّ، مهتمّ بالتسجيلات الصّوتيّة، أبدى عدم موافقته على تكاليف استوديو " فريد يماني " لأنها باهضة جدّا، فقلت فيما معناه أن هذا " فريد يماني " له خبرة في العمل و هو يعلم جيّدا ما يقوم به، و عليه فإنّي بين يديه أعتبر نفسي بين يدٍ أمينة، عرض عليّ أن يسجّل لي أنشودة واحدة في دار الشباب، خشيت التشويش الذي يمكن أن يؤثر على جودة العمل، قال أنه سيرسل لي عملا أنجزه سابقا و لي الحكم.

فكرت في الأمر قليلا في المنزل، فوجدت أنّها فكرة لا بأس بها، يمكن أن أسجّل أنشودة منفردة حتى أنه عرض عليّ مساعدتي في واحدة مجّانا، يوجد القليل من الخيارات الجيّدة في موقف صعب كهذا؛ يجب أن تصارع و تصارع كي تتأقلم و يتأقلم معك الآخرون، خاصّة مع انهيار أسعار البترول في السّوق العالميّ، ممّا يعني أن الحكومة قد تقلّل من المبالغ الممنوحة للجمعيّات، اليوم فقط صرّح الوزير الأول " عبد المالك سلال " أنه تمّ تجميد بعض مناصب الشغل في الوظيف العموميّ للسّنة المقبلة 2015، مهما كانت أهميّتها، و بناء عليه فإن الدّولة ستقوم بتقليص جميع النفقات غير الضروريّة، تقشّفا لمواجهة الانخفاض المستمرّ لأسعار البترول، و هي الآن 57 دولارا للبرميل الواحد، بعدما كانت تتجاوز 120 دولارا أمريكيا.

يوم السّبت 27 ديسمبر 2014؛ حضرت " سهام " وحدها فيما تغيّبت الأخريات، أخبرتني " ليلى " مسبقا أنّها ستكون مشغولة بمباراة ستلعبها، و أخبرتني " سهام " بدورها أنّ اختها " فلّة " مريضة، أمّا " منال " و " أسماء " فلا أعلم عنهما شيئا، يبدو أنّ هناك نقصا في الالتزام، هذا ما لاحظته في الآونة الأخيرة، بعد أكثر من 03 أشهر و ملّفات بعض العناصر غير موجودة، قالوا أنّ " كوثر " ذهبت لتعمل مع " سفيان . م "، شأنها و لا أفرض على أيّة واحدة شيئا لا تقبله، لكن إذا حدث أي شيء لها في المستقبل فلست معنيّا بها إطلاقا.

في تلك الحصّة عملت مع " سهام " فقط، أكملنا الفقرة 2 من أنشودة " غب يا هلال "، بسهولة تامّة، أعطيها اللّحن فتحفظه بأخطاء بسيطة، ثمّ سرعان ما يصبح كاملا، رائعة هذه الطفلة و كأنها خلقت كي تنشد، تحفظ اللّحن بسهولة كما أنها تتمتع بإحساس داخليّ يعينها على المحافظة على الوزن و منه على الإيقاع، تنقصها بعض الجوانب النظريّة و تصبح مؤهّلة لاجتياز الرّتبة الأولى لها في نوفمبر 2015، رتبة " سوار "، ثمّ بعد سنتين يمكن لها أن تحصل على رتبة " إشراق ".

حين تجلس أمامي " سهام " تلك الصّغيرة الحنونة؛ يتملّكني إحساس عميق بالأبوّة، أشعر أنها ابنتي البكر، أنا فعلا أحبّ هذه الطفلة و أسعى لتكوينها تكوينا متقدّما في الإنشاد مهما كلّفني ذلك، و لكنّ الطّريق شاقّ أمامي و أحيانا يبدو مظلما حالك السّواد، تقاس قيمة النّاس بما يبذلونه من أجل الآخرين، و في عالم يتغيّر بسرعة كبيرة؛ يصعب علينا أن نحافظ على مبادئنا، كثير من أصدقائي تخلّوا عن أسسهم تحت ضغوط شتى، لذلك فليحفظني الله.

في حصّة يوم السّبت 03 جانفي 2015؛ و بسبب لا مبالاة البعض و الكسل و التهاون فكّرت في توقيف العناصر التالية من الفرقة الإنشاديّة بصفة نهائيّة : " منال العربي عيسى "؛ " كوثر بلقاسم "، من لا تريد العمل معي فعليها البقاء في المنزل أو تذهب لتعمل مع آخرين، ما أريده الانضباط و الالتزام ثم من حقّ الجميع أن يحاسبوني على النّتائج المحقّقة، أمّا أن تفعل كلّ واحدة ما تريده ثم تحاول قطف الثّمار ناضجة في النّهاية فهذا ما لا أقبله أبدا، و لن أقبله مطلقا، لأني لم أقبله منذ البداية؛ مذ بدأت مشواري الدعويّ، نحن فرقة قليلة العدد نعمل في مناخ غير ثقافي، لدينا عشرات المشاكل التي تعرقل تقدّمنا باستمرار؛ ثم أجد في النهاية واحدة نسيت إحضار ملفها، و الأخرى تستيقظ متأخرة، و لدينا ألبوم نحاول إنجازه باتقان، و هذا يتطلّب لا بل يستوجب الحرص على الحضور في الموعد، و تنفيذ جميع التّعليمات بدقّة متناهية، أو ليذهب كلّ طرف إلى شؤونه الخاصّة ما دام هناك نقص في الإمكانيّات وأحيانا انعدامها.

أمّا أن نزعم أن نيسّر للنّاس لأنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أمرنا باليسر و أوصانا به؛ فو الله لو نضع الحبل على الغارب للجميع ما أفلح فينا أحد، لأنّ التسيّب سيغري آخرين بالفوضى ما دامت ترفع عنهم كل قيد.

الغريب أني حين أغضب يتسائل البعض عن سبب غضبي و كأنهم يعيشون في عالم آخر لا يرون ما أرى و لا يسمعون ما أسمع ؟، وإذا كنت عصبيّ المزاج كما يزعمون فليس هناك من يجبرهم على العمل معي، و لكن ليريني أيّ واحد وجهه إن أفلح، أخطاء الماضي تتكرّر أمامي و لا أجد عزيز نفس يأخذ العبرة من غيره.

أين فرق الإنشاد التي كانت قديما في " العفرون " ؟، هم يعلمون أنّ عليهم العمل بجديّة أكبر كما لو كانوا في معركة من يخسرها يموت أو يُؤخذ أسيرا، أرجوكم دعونا من النّفاق و من المجاملات التي أضرّت بنا أكثر ممّا قدّمته لنا من منفعة، لنصارح بعضنا بعضا بأخطائنا و لنبدأ صفحة من جديد، لست أرى غرابة في قلّة الفرق الإنشاديّة المتخصّصة؛ بل أحيانا أتحسّس من الفرق ذات 30 فردا فما أكثر، هو غثاء كغثاء السّيل، و ما أكثر ما تمطر السّماء و ما أكثر فيضاناتها !، و مع كلّ فيضان هناك ضحايا.

حضرت في هذه الحصّة " سهام " و " أسماء " ثم أتت " نوال " بكتابها " المرأة و الإنشاد "، التي أكملت معنا الحصّة إلى نهايتها، سجّلت أنشودة " غب يا هلال " بأداء " سهام "؛ ثم " أسماء " التي استوعبت اللّحن و لكنها ما زالت تعاني من التردّد و الارتباك، في المساء هاتفت " ليلى " لأستفسر عن سبب غيابها مرّتين متتاليتين، فأجابتني من ردّت عليّ أنّها تخلّفت بسبب المولد النبويّ الشّريف فقط، ظنّت أنّنا لن نتدرّب فآثرت البقاء و لا سيما في موجة البرد التي تجتاح الشّمال الجزائريّ هذه الأيّام.

في المنزل عكفت على تسجيل " سهام " أعالجه بواسطة برنامج المعالجة الصوتيّة " Adobe Audition " الإصدار 6، من الجيل CS حين فشلت في استعمال برنامج " Mixcraft " الإصدار 6 بسبب غياب النّسخة الأصليّة، عمليّة كهذه كلّفتني عدّة ساعات أمام الكمبيوتر، أردت للبنات أن يكتشفن خبايا التّسجيل و لو بطريقة سطحيّة كي يستطعن مواجهة التّسجيلات الاحترافيّة في الاستوديو، أين تتحوّل عمليّات التّسجيل المعقّدة الى شيء رائع يُحتفل به.

إلتقيت يوم الأربعاء 07 جانفي 2015 مع الأستاذ " سفيان . ب " الذي يعمل في إكمالية " العقيد شابو "، كان في إحدى نوادي الإنترنيت، لقد أراني بعض الصّور التي التقطها في مشاركته الأخيرة في مدينة " ميلة "؛ كانت بينهم " ناريمان مجنون "، لم يكن موافقا على تسجيل ألبوم، طبعا لديه فرقة مدرسيّة همّها الوحيد المشاركات، ثم يذهب كلّ واحد منهم لشأنه، و في السّنة الجديدة يدخل أعضاء جدد و الحياة تستمر.

يمكن أن تستقطب العشرات من الأعضاء في الفرق المدرسيّة، غير أنك لا تستطيع الذّهاب معهم بعيدا و لو شاركت بهم في القمر، لديك مهلة 04 سنوات فقط ثم يختفي كلّ شيء، و يصبح كلّ ما فعلته مجرّد ذكرى طيّبة في نفوس تلاميذك، أمّا فرق الإنشاد المنضمّة لجمعيّة أو لمؤسّسة شبانيّة فلها إمكانيّة التّعمير، يستطيع الأطفال أن يبقوا معك 20 سنة و أكثر، مجال خصب لتربية المواهب، المهمّ أن تجد أناسا ثقاتا يساعدوك في هذه المهمّة الصّعبة.

يجب أوّلا أن تحدّد استراتيجيّتك في إطار نشاطك، هذا هو الحلّ، يتطلّب تسجيل ألبوم أموالا و جهودا خارقة، يستدعي تعاونا بين عدّة أطراف، لا يريد الكثيرون أن يدخلوا أنفسهم في طريق شاقّ يقطع الأنفاس.

على كلّ حال؛ لو حلّلنا وجهة نظر كلّ شخص؛ لوجدنا أنّ لكلّ واحد مصلحة يريد تحقيقها، و خير المصالح ما كان لوجهه تعالى.

كان العصر من يوم الجمعة 09 جانفي لمّا وجدت نفسي على وشك الانتهاء من تلحين أنشودة جديدة، ما زلت لم أخبر بها أحدا، لا أريد التعجّل فيما قد أندم عليه، أبغي دراسة اللّحن جيّدا قبل اعتماده رسميّا، أوّل مرّة أتناول قصيدة للشّاعر " محمود درويش "، أصلحت فيها بعض العبارات المبالغ فيها لدرجة تمسّ الدّين فيما يبدو، لا أريد سوى أن ألتمس خيرا من عبقريّة هذا الفنّان، و لو حذا كلّ واحد حذوي؛ لما اتهمونا بإقصاء غيرنا و تهميشهم.

أكملنا حصّة يوم السّبت 10 جانفي بما سمحت به الظروف، ما زلنا عالقين في أنشودة " غب يا هلال "، لقد أخذت منّا كثيرا بسبب صعوبة بعض المقاطع، لأنها من شعر التّفعيلة، لم تستطع سوى " سهام " التقدّم فعليّا في وقت قياسيّ، في هذه الحصّة أخذت قرارا بطرد العناصر التالية نهائيا لعدم اكتراثهنّ بما نحن فيه : " منال "، " كوثر "، " رفيدة ".

أمّا " ليلى " فلم أرها منذ 03 أسابيع، ساد لفترة اعتقاد توجهّها للمسرح، كانت متحمّسة لدخوله، ألم أقل لكم أن نفس المشاكل عادت لتطرح نفسها بقوّة هذه المرّة ؟، الوثائق و تردّد بعض العناصر ؟، تشتيت قوّة الأطفال إلى فرق سرعان ما تتوقف لسبب من الأسباب ؟، نفس التّجربة السّابقة التي تعرّضنا إليها حين كنّا في الكنيسة القديمة نتعرّض لها الآن، إمّا مباشرة أو بصورة أخرى، إتّصلت بالمنزل فلم يجبني أحد، لا أعلم هل هي مريضة في المستشفى فأذهب لزيارتها كما ذهبت إليها في المرّة الماضية ؟، لقد وجدتها آنذاك على وشك الخروج و قد بدأت تتماثل للشّفاء.

مشكلتها أنّها تريد أن تعمل عدّة أشياء في وقت واحد، و في النهاية لا تستطيع أن تعمل أيّ شيء.

في هذا اليوم التقيت مع رئيس جمعيّة " النّسيم " الذي استطلع المصاريف التي ينبغي له توفيرها لتسجيل الألبوم، أسمعته تسجيلا مبدئيّا لأنشودة " غب يا هلال " فخصّص لي حسب قوله مبلغ 50000 د . ج، لا يستطيع دفع أكثر، طالبا الفاتورة الابتدائيّة و تنظيم الوقت من أجل الانتهاء من العمل بسرعة، لأنه كلّما زادت المدّة زادت التكاليف، و برنامجي قائم على تسجيل الأصوات في عطلة الرّبيع، قبلها يجب أن يكون كلّ شيء جاهزا، أتكلّم هنا عن 03 أناشيد فقط.

لكن أحسّ أنّه يتوجّب عليّ الحصول على المال من سبل أخرى، لذلك قرّرت بيع حقوق كتبنا السّابقة لمن يدفع أكثر، كلّما كان المبلغ كبيرا كلّما سمح لي بتسجيل أكبر عدد من الأناشيد.

" الحوض الآمن "

أفكّر في إيجاد طريقة أستعيد بها " أماني " التي أوقفتها أمّها بدعوى أنّها لا تعمل شيئا في الفرقة، ليس لديها دور الفرديّ، ببساطة شديدة لأنّ أحبالها الصّوتيّة ليست قويّة رغم التّدريبات التي أجريناها، أشياء كهذه تحدث في أيّة فرقة، لكنّها عملت كلّ ما في وسعها، لديها من الانضباط ما يجعلها أهلا لتولّي دور آخر غير الأدوار الصّوتيّة، نجاحنا كأسرة واحدة، تختلف أدوارنا حسب إمكانيّاتنا.

في حصّة يوم السّبت 17 جانفي 2015؛ حضرت " ليلى " و غابت " أسماء " التي ذهبت في رحلة مدرسيّة، بدأ الانسجام يظهر في الأصوات، أكملنا الأنشودة التي ما زلنا فيها، أعتقد أنّ الأمر يتطلّب شهرا كاملا للانتهاء منها، ثمّ نشرع في المراجعة النهائيّة لكلّ ما سبق، ما يقلقني هو التوقّفات المفاجأة لبعض العناصر، عندما تغيب منشدة مرّة واحدة؛ فمعنى هذا أنّها لن تتدرّب صوتيّا مدّة 15 يوما، على كلّ حال سنسجل 03 أناشيد فقط في عطلة الرّبيع إن توفّر المال طبعا.

بالمناسبة؛ أسعار البترول في مستوى 48 دولارا أمريكيّا، كلّ شيء في الأفق يبدو حالكا و لكنّ رحمة الله وسعت كلّ شيء.

أريد أن أنشر الوعي الإنشاديّ الحقيقيّ بين هؤلاء البنات اللّواتي وثقن بي، أريد أن تكبر " سهام " و " فلة " و " ليلى " و " أسماء "، " كنزة " و " نوال " و الأخريات ليس على حبّ هذا الفنّ فحسب؛ بل على كونه وسيلة دعويّة إلى الله تعالى، مثلما يدعو إمام المسجد النّاس لطريق الحقّ.

أتمثلهنّ منارات شامخة وسط أمواج الفتن، و عليه يجب أن يتعلّمن منذ الصّغر معنى التّضحية لأجل الآخرين؛ مفهوم التّضحية بوقت اللّهو من أجل التعلّم، هذا سينمّي في قلوبهنّ الاعتماد على النّفس و نبذ الكسل و التأفّف، أجاهد من أجل نزع الأفكار الوضيعة من عقولهنّ التي يزرعها المجتمع كحبّ الشهرة و المال و زخارف الدّنيا، أحاول أن أزرع فيهنّ القوّة و العزيمة و الإرادة لمواجهة المستقبل الغامض الذي ينتظرهنّ، من يعلم ما سيكون في الغد ؟، تقلقني " ليلى " بحيويّتها التي تشي بالفوضى، أخشى عليها أحيانا تسرّعها الذي قد يدمّر كلّ شيء أمامها، تقلقني " أسماء " عندما ألمح عدم تحكّمها في التّقنيّات و غيابها المستمرّ، مشكلة " فلّة " نقص التّركيز الذي سيؤثّر عليها في كلّ شيء، حتّى في دراستها، تغضبني " منال " التي تريد أن تنال كلّ شيء دون تعب، رغم أنّ لديها قدرات هائلة غير أنّها لا تبالي بما حولها، هذا هو الجيل الجديد الذي أصبحنا نخاف عليه المستقبل، جيل الكلّ متفق أنّه مختلف تماما عن الجيل السّابق، أمّا " كنزة " فقد آنست فيها الرّشد، أصبح التّفريق بين الحسن و القبيح لديها في مرمى حجر، أحاول غرس مشاعر الأسرة بينهنّ، هو الحبّ وحده القادر على تغيير النّفس البشريّة إلى ما يرضاه الله تعالى لنا.

على الأولياء مساعدتي، لا أستطيع تربية طفلة أقضي معها ساعة و نصف في الأسبوع، هما الأب و الأمّ من لديهما سلطة الضّبط و الإقناع، أمّا أنا فدوري بسيط جدّا و في نفس الوقت حسّاس جدّا.

لا أريد أن أجعل الجميع يعيشون في مناخ عسكريّ، جوّ كهذا يجعل الكلّ في ضغط عصبيّ، كلّ شيء يسير بالأوامر، هؤلاء أطفال و لكنّهم مع ذلك لن يبقوا أطفالا للأبد.

إذا استطعت تربية هؤلاء تربية إسلاميّة صحيحة؛ سأكون قد نجحت في مهمّتي نجاحا باهرا، و لا يهمّني بعدها ما سيقوله النّاس.

و لكن تغيّر كلّ شيء في حصّة يوم السّبت 24 جانفي 2015 ، قرّرت الاحتفاظ بمنشدة واحدة فقط هي " سهام " و توقيف الأخريات نهائيّا عن العمل نظرا للعوامل التالية :

- غياب " أسماء " و نحن في أمسّ الحاجة لها لأنّ الكورال ضعيف، و عليه فإنّ أيّ غياب سيؤثّر بشدّة.
- لا مبالاة " فلّة " و " ليلى " بالأمر، حيث من المفروض إتمام العمل في الوقت المقرّر له، بل و التّحكّم الجيّد في كلّ المعطيات كي لا نضيّع الوقت في الأستوديو؛ غير أنّهما في عبث مستمرّ غير آبهتين بما حوليهما، ممّا يتسبّب في تضييع وقت ثمين جدّا.
- إنخفاض شديد في مستوى آداء الكورال ممّا يؤدّي إلى الانعكاس السيّء على الألبوم.
- لا مبالاة الأولياء بما أقوم به و كأنّي أحاول رفع جبل برفش خشبيّ.

كـانت هذه الخطوة استراتيجيّة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، رغم ما يتواجد بها من حرج، و هي ما يُعبّر عنها في مدرسة " الاختصاص " بمصطلح " الحوض الآمن "، أي التخلّص من كلّ العناصر التي تسبّب أيّة مشكلة مهما كان نوعها أو حجمها، و الاحتفاظ بالعناصر الأكثر كفاءة و لو كانوا يعدّون على أصابع الكفّ الواحدة.

في ذلك فائدتين :

- إبراز حجم و مدى الصّرامة في التّعامل مع من يخالفون شروط الانضباط و الالتزام.
- إنقاذ الموقف بإبعاد كافّة الأخطار التي تقف في وجه السّيرورة العادية و الحسنة للنّادي.

أصبح الواقع الآن متمثّلا في رأيين :

- البحث عن كورال جديد سواء كان فرقة إناث أو ذكور أو حتّى منشدين كبار، ليشاركوا " سهام " ألبومها الأوّل.
- إعادة صياغة العمليّات الفنيّة بناء على وجود منشدة واحدة فقط.

لقد تمّ تطبيق مرحلة " الحوض الآمن " في حقّ فرقة " الأنسام " قبل تفكّكها، على الأقلّ مدّدنا في عمرها أشهرا.

في آخر لحظة عدلت عن القرار و اكتفيت بتوجيه إنذار شفهيّ شديد اللّهجة لكلّ المعنيّات بقرار التّوقيف.

التّكوين عن بعد

ليس سهلا أن تعلّم النّاس ما يجب أن يفعلوه، و لكن من اليسير أن ترشدهم إلى الطّريق الذي تطمئنّ أنت إليه، فما يبقى عليهم سوى إكمال المسيرة التي بدأها الواحد منهم معك، ففي الفاتح من جانفي 2015 فكّرت في تكوين من يرغب في تعلّم الإنشاد وفق الفكر الإنشاديّ الحديث، ما زالت الفكرة لم تتبلور جيّدا بعد، و لكن يجب التّأكيد على أنّ هذا التّكوين سيكون في الإنشاد برؤية دقيقة و ليس في الموسيقى كما يتخيّل البعض أو يتصوّر، فما ينقصنا هم أعلام هذا الفنّ الرّاقي و ليس الموسيقيّين.

فكرتي هي ما يشبه المعهد المتخصّص في الدّراسة الإنشاديّة، ترجع هذه الفكرة إلى سنة 2005، حيث طُرحت في نقاش عام لدينا في مدرسة " الاختصاص "، و لكن رأينا أنّ نتريّث قليلا لأنّ الوضع العامّ ليس مناسبا تماما، فإذا قدّمنا دروسا يجب أن تكون متميّزة في الإنشاد كعلم قائم بذاته و فنّ مستقلّ بنفسه، و ليس مجموعة من المعارف التي يقدّمها أيّ أستاذ متحصّل على شهادة معيّنة في الموسيقى.

الآن؛ أعتقد أنّ الواقع مناسب لها تماما، ينبغي التفكير بطرق غير تقليديّة، و بالاعتماد على الوسائط المتعدّدة؛ فإنّ العمليّة ستكون ذات فائدة أكبر من ذي قبل.

لقد تغيّر المخيال العامّ للإنشاديّين منذ 10 سنوات، هناك بذور وعي لدى أفراد مدرسة " التّتابع "، و يجب استغلال هذه الكتل المهملة بما يعود بالنّفع على الدّعوة الفنيّة، ما زالت فكرة الاختصاص غير مقبولة لدى الكثيرين، كونها تستدعي تكاليف مالية، و تتطلّب تخصيص أوقات ليس من السّهل إيجادها في ظلّ استهلاك العمل اليوميّ كلّ ساعة من أوقاتنا، ممّا لا يدع مجالا للشكّ في ضرورة احتواء التّناقضات و التحوّل إلى اقتصاد الإنشاد.

و المسألة تبقى مفتوحة للنّقاش.

يتبع إن شاء الله

خاتمة

هي كلمة حقّ نرى من الواجب أن نقولها في هذا الموقف، لقد بذل هذا الأستاذ جهودا خارقة من أجل ترقية الفنّ الراقي، و إن مُنح رتبة " إستبرق " فليس لشيء سوى للعرفان الذي نكنّه له و للاحترام الذي يفيض من قلوبنا، في البداية؛ لم يكن راضيا أبدا بما يفعله؛ تواضع منه لا غير فقد شارك في كتب ما زالت لم تصدر بعد، دون أن نتكلّم عن مشاركاته الفعّالة في كتب اشتهرت بين الإنشاديّين.

ربما لم يتوقّع أحد أن يشرع الأستاذ " عبد الرزاق أنفو " في كتابة مذكّراته الشّخصيّة، فقد بدأ المغامرة في سنة 2012 حين أسّس النادي الإنشاديّ " قندس "، ثم راح يخوض بحار ماضيه بإلحاح منا بموضوعيّة محيّرة؛ ليسرد بعض التفاصيل التي لا يعرفها الكثير، لجيل نأمل خيرا فيه، فنحن في بيئة لا تدوّن فيها التّجارب إلاّ ما ندر، و لعلّ البعض يعتبر هذا فعلا غير مناسب البتّة، فيما اعتاد القسم الآخر على وقائع يرويها شيوخ على مسيرة عام من القبر، و هذه مشكلة يجب أن نقضي عليها في أقرب وقت؛ و بطريقة جذريّة، فلو كنّا نطّلع على تجارب بعضنا البعض و نحاول دراسة ذلك خطوة بخطوة؛ لتجنّبنا مئات الأخطاء التي يقع فيها الإنشاديّون مرارا و تكرارا على مرور الأعوام.

إنّ ما فعله الأستاذ " عبد الرزاق " و ما قدّمه لنا من خلال الصّفحات السّابقة؛ الحكاية في جزئها 02 من مارس 2014 إلى جانفي 2015، يعكس لنا تجربة فريدة من نوعها، إرادة فولاذيّة امتزجت بأحاسيس و مشاعر عكست بدورها الجانب الإنسانيّ و النّفس البشريّة بما لها و ما عليها، و أمام التّحديات التي قد يرفع أمامها البعض الرّاية البيضاء؛ وقف هو بكلّ ما أتاه الله من قوّة في وجه عواصف الجهل و الفوضى، يجاهد لزرع بذور لا يضمن أن تنتش فضلا عن النمو.

نظلّ نكرّر و لا نسأم حتى يفيق الغافلون فيتّجهون للمعرفة بدل الانتظار.

جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة

فيفري 2015



Culture

EL-AFFROUN

Musique et virtuoses au C.E.M Lazhar

La distribution des prix au C.E.M. Lazhar Mohamed a été fêtée cette année d'une manière exceptionnelle, originale.

Elle aura laissé pour tous ceux qui étaient là (professeurs, élèves, parents d'élèves) le souvenir d'un moment "merveilleux", "inoubliable", "unique", "trop court"...

Pourtant, avec l'air de s'excuser, le directeur nous avait assurés que la fête a dû se décider rapidement, avec tous les aléas que cela suppose.. mais, c'était sans doute, le contenu léger du

مقال منشور في جريدة : PARCOURS MAGHREBINS للصحفيّة " فتيحة صمّان "

بتاريخ : 22 جويلية 1991، يظهر فيه الأستاذ " مأمون "، و أنا في المجموعة على اليسار.



لجنة تحكيم مناقشة مذكرة اللّيسانس يظهر فيها الأستاذ المشرف " محمّد توفيق مدني " على اليمين.



الطالبة " كلثوم . ش " معي أثناء مناقشة المذكرة.



صورة جماعيّة لكل المساهمين في المذكّرة من الأصدقاء.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشباب و الرياضة

مديرية الشباب و الرياضة
ديوان مؤسسات الشباب
المركب الرياضي الجواري
العفرون ولاية البليدة



النادي الإنشادي قندس

إعلان

بمناسبة الذكرى الستّين لاندلاع الثورة التحريريّة الكبرى؛ ينظم النادي الإنشاديّ قندس بالعفرون :

المسابقة الإنشادية الأولى لسنة 2014

أجب على الأسئلة و احصل على :

الجائزة الأولى : **لوح تفاعلي محمول علامة 3Q حجم 07 بوصات.** **الجائزة الثانية** : **مصباح مكتبي من النوع الرفيع.**

الجائزة الثالثة : **آلة حاسبة من نوع IBICALC .**

شروط المسابقة :

1 – أن يكون سن المشارك أو المشاركة من 10 سنوات إلى 15 سنة.
2 – أن يكون من سكان بلدية العفرون أو متمدرسا في إحدى مدارسها.
3 – لا يحق لأي مشارك المساهمة في المسابقة بأكثر من مشاركة واحدة.

نظام المسابقة :

تكتب الأجوبة على ورقة بيضاء من حجم A4، مع كتابة إسم و لقب المشارك و اسم مدرسته و القسم الخاصّ به في الأعلى، ثمّ توضع ورقة الإجابة داخل ظرف بريديّ صغير مغلق؛ و تسلّم إلى مكتب الاستعلامات في المركّب الرياضيّ الجواريّ CSP، قبل يوم : 20 أكتوبر 2014.

يختار الفائزون بقرعة عامة من بين نصاب الناجحين المقدر بـ 20 ناجحا؛ يوم السّبت 01 نوفمبر.

رئيس النادي عبد الرزاق انفو   2 4 سبتمبر 2014





الهاتف : 34 - 42 - 97 - 71 07 (213+)

مهمتنا استكشاف مواهب الأطفال و الناشئة ثم توجيهها إلى الهدف الأسمى .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشباب و الرياضة

مديرية الشباب و الرياضة
ديوان مؤسسات الشباب
المركب الرياضي الجواري
العفرون ولاية البليدة



النادي الإنشادي قندس

أسئلة المسابقة الإنشاديّة الأولى 2014

الأسئلة الإجبارية :

01 – ما هو الفرق الجوهري بين فن الإنشاد و فن التغريد ؟.
02 – كيف يمكن أن نورخ إنشاديا لمعالم ثورتنا التحريرية الكبرى ؟.
03 – ما المقصود بتجديد الخطاب الإنشادي ؟.

الأسئلة الاختيارية : (إختر سؤالين فقط من التالي)

01 – لماذا تسمى مدرسة الإختصاص بمدرسة الأفكار ؟.
02 – عرف " نقطة الإحاطة ".
03 – كيف نوظف الهوية الوطنية في العالمية ؟.
04 – ما هو الفرق بين الاشهار و الإعلان ؟.
05 – كيف نوفق بين الموسيقى كعلم؛ و الإنشاد ؟.
06 – كيف يمكن توظيف الثقافة الخاصّة بنا في الإنشاد ؟.
07 – تحدث عن الأناشيد الوطنيّة باختصار.
08 – ماذا يعني لك استعمال اللغة العربيّة كلغة وطنيّة في الإنشاد ؟.
09 – ما هي المقامات الموسيقيّة المستعملة بكثرة في الأناشيد ؟.

قائمة المراجع :

01 – مدخل إلى فن الإنشاد.
02 – المنظار في النقد الإنشادي.
03 – أوراق من المكتبة الإنشادية.
04 – الرسالة ... بصمات في الإعلام الإنشادي الجزء 01.

ملاحظات هامة :

- يمكن الاستعانة بالأساتذة و الأولياء.
- الرجاء الإجابة بخط واضح و أفكار مفهومة ثم التحقق جيدا من الإجابات قبل تسليمها.
- نؤكد على ضرورة الالتزام بشروط المسابقة و نظامها، و المخالف تلغى مشاركته و لو كان ناجحا.
- 04 نقاط على كل إجابة.

بالتوفيق للجميع

مهمتنا استكشاف مواهب الأطفال و الناشئة ثم توجيهها إلى الهدف الأسمى. الهاتف : 34 - 42 - 97 - 71 07 (213+)





إصدارات تهمّك :

التجربة القندسيّة الجزء 01



• يحمل العمل الجمعويّ معنى العطاء، و يأخذ المفهوم الإنسانيّ في بعده الشامل، يعلّمنا أن نحبّ الآخرين و نساعدهم دون أن ننتظر أيّ مقابل منهم، و إذا كان يجوز شرعاً إقامة التماثيل؛ فهؤلاء العظماء أولى بكلّ تكريم و تخليد، لقد بدأت خيوط القصّة في الانسجام صيف عام 2012، حين راودتني فكرة إنشاء فرقة إنشاديّة يكون أعضاؤها من الأطفال، لكن في الواقع للقضيّة جذوراً أعمق من هذا التاريخ، لقد طرحت المسألة أوّلا على بعض الأصدقاء المقرّبين من جمعيّة " النسيم " للفنون و السّياحة، و أقصد السيّد " رابح . ش " الكاتب العامّ للجمعيّة التي تمّ اعتمادها رسميّا سنة 2010، في إطار التوجّه الجديد للحكومة، و برنامجها الرّامي إلى إعلاء سلطة المجتمع المدنيّ في الجزائر.

المحاولات الأولى



• ما أجمل أن تتحرّك الإرادة في الأطفال !، و ما أروع أن نبث فيهم تلك الرّوح التي تنظر إلى الواقع بتفاؤل !، فينعكس ذلك في مقالات مختلفة المضامين، تخطها أياديهم التي باركها الرحمن، هم لا يدرون أنّهم يعبّرون عن أفكارهم الشخصيّة تجاه قضايا معيّنة، مجرد حركات لا يعون مدى قيمتها في كتابة التاريخ من جهة؛ و لا يدركون أنّهم بأفعالهم البسيطة هذه؛ يفتحون طرقا لغيرهم ... و إذا كان الجمال في تحريك ما يجب أن يتحرّك باكرا في أجيال المستقبل؛ فما أبهى أن تتوسّع هذه الحركة، و يكتب الأطفال للأطفال ... تحت رعاية الكبار !.

أوراق من المكتبة الإنشاديّة



• ما زال الأطفال يكتبون للأطفال؛ و ما زال الكبار يرعون كتاباتهم، و لله الحمد و المنّة، هي المحاولات الثانية بتعبير آخر، لكن هذه المرّة ... وفق رؤية مغايرة، تشبه كتاب " السّنابل " إلى درجة معيّنة، فليبارك الله هذا النبات و يسقيه من مائه المقدّس.

أمّا أنت يا طفلي العزيز؛ خُلقت للفعل منذ أمد بعيد؛ فغيّر التاريخ.

مدخل إلى فنّ الإنشاد (نسخة منقّحة)



• هو مدخل إلى فن عريق له أسسه و مميزاته و خصائصه، و لسنا مسؤولين عن الكيفية التي يراها به القرّاء، فما بين أياديكم عبارة عن جسر تنتقلون عبره إلى معارف جديدة، أي أننا نضعكم في ميدان معرفي غريب عنكم بعض الشيء، من أجل أن تكونوا إنشاديين بحق، و لتثقيفكم، فالإنشاد ما أضحى كما كان، لقد تغير كل شيء يا سيدي، زال كل ما كان عالقا من أوهام الماضي، ذابت الأفكار الرثة البالية، مشكلة العالم الآن هي هل تعلم أم لم تعلم ؟، ثم هل عملت بما عرفت أم لم تعمل ؟، كل ما في هذا الوجود قائم على العلم، مرتكز على العلماء الذين باستطاعتهم حفظ الوجود إلى غاية يوم القيامة.

يا سيدي ... لقد انتهى زمن المعجزات منذ أمد بعيد، فكيف نكلّم من كان في المهد صبيّا ؟؟؟.

متابعات في الثقافة الإنشاديّة



• يؤدّي الشعور بضرورة وجود الآخر إلى محاولة الحصول على هيكل معلوماتي يؤسّس لكيان خاصّ به، يدخل ضمن الوظائف العليا للكائن البشريّ، و تلك الفكرة تمثل ميلا طبيعيّا نحو اكتساب ثقافة حول الآخر، أي محاولة احتواء كينونة لم يشهدها من قبل، و هذا ما يعتبر نيّة مسبقة بالاعتراف بوجود ثقافي جديد، يحاول الإنشاديّون أن يضعوه موضع الحسبان، حيث تحضر النزعة التثقيفيّة كحتميّة؛ بعدما كانت ضرورة قابلة مع هذا للاستغناء عنها.

المنظار في النّقد الإنشاديّ (نسخة خاصّة)



• رؤية موضوعيّة إلى النقد الإنشاديّ، موجهة إلى الجمهور و إلى الذين يجب أن يبرزوا كنقاد من أصحاب الاختصاص، كل ما قد يجول في الأذهان من تساؤلات حول هذا الميدان الذي لا تكفي كلمة مهم للتعبير عنه كاملا، هو مدخل يفتح الباب فقط لتكون أنت و أنتِ بالدّاخل.

الرّسالة ... بصمات في الإعلام الإنشاديّ الجزء 01 (نسخة خاصّة)



- من المفروض أن يكون العنوان خير دليل على المضمون، فإذا شئنا أن نوضح أكثر قلنا أنه مساحة حقيقة تعرف المهتمين بما يدور في مجال الإعلام الإنشادي، و خاصة أمام تطور العالم و نظرة الأهميّة التي بدأ يوليها للاتصال و التّواصل من أجل إنشاء الدولة العالميّة الواحدة.

مرايا إنشاديّة (نسخة خاصّة)



- ربما تكون قد اطلعت على هذه المقالات من قبل، هي الآن في كتاب واحد بعدما نشرت من قبل عند صدورها في 10 أجزاء، حرصا على المنفعة العامة لكل إنشادي، أو حتى من الجمهور، فإن لم تنل شيئا من المسك؛ هل تضيرك رائحته الزكية ؟، لتطالع على الأقل 330 مقالة في مواضيع متشعبة لا تخرج عن المربع الإنشادي، فقد يأتي إلى ذهنك أن بعضها خارجة عن الجســـم، كلا ... كلها في الإنشاد، المشكلة أن فن الإنشاد لديك مفهوم ضيق المساحة، فهلا خرجت من الزجاجة من فضلك ؟؟؟.

السّنابل



- أكثر من 100 مقالة دفعة واحدة بمواضيع مختلفة، كتاب يشبه أجزاء مرايا إنشاديّة العشرة، و لكن هذه المرة في جزء واحد وحيد، قد يحسبها البعض مغامرة كونها ألقت بكل الحمولة دفقة واحدة، إلا أن الفترة الراهنة تختلف قليلا عن الفترة السابقة.

تأمّلات في الفلسفة الإنشاديّة (نسخة خاصّة)



- تأمّلات في مواضيع قد ترتبط بين بعضها البعض، تدخل كلها ضمن الفكر الإنشاديّ الحديث، عبارات و مقولات خصت بالتحليل و المناقشة، و ما يستدعي ذلك من التطرق لمواضيع تدخل في صلب الإجابة، هي ألغاز تم تفكيك شيفرتها، أو على الأقلّ سعينا إلى ذلك.